حول تفسير

سورة الفاتحة

أم القرآن الكريم

بقلم

الإمام المفسر المحدث الشيخ
عبد الله سراج الدين الحسيني
رضي الله عنه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم، وعلى سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين ، وأكرم الأولين والآخرين على رب العالمين ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد :

فهذه كلمات في التفسير موجزة ؛ تعبر عن بعض معاني سورة الفاتحة ، التي هي أم القرآن الكريم – لعل الله تعالى ينفعني بها ، وينفع بها من اطلع عليها ، وهي في الحقيقة تدور حول بعض معاني سورة الفاتحة ، لأن بحر معانيها وعلومها ؛ ومعارفها وأسرارها ؛ هو بحر لا ساحل له .

فقد قال أمير المؤمنين سيدنا علي رضي الله عنه وكرم الله وجهه : لو تكلمت لكم على سورة الفاتحة لأوقرت سبعين بعيراً . اه .

والمعنى : لو تكلم على ما فهمه الله تعالى من معاني سورة الفاتحة ، لملأ كتباً كثيرةً يحتاج حملها لسبعين جملاً .

وقال العلامة فخر الدين الرازي رحمه الله تعالى : اعلم أنه مر على لساني في بعض الأوقات أن سورة الفاتحة يمكن أن يستنبط من فوائدها عشرة آلاف مسألة ، فاستبعد ذلك الحساد ، فشرعت في تصنيف هذا الكتاب – يعني تفسيره – وقدمت له مقدمة لتصير له كالبينة على أن ما ذكرناه أمر ممكن الحصول . اه .

وإن معاني كتاب الله تعالى لا تنتهي ؛ وإن عجائبه لا تنقضي ، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم : [كتاب الله تعالى : فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله تعالى ، ومن ابتغى في غيره الهدى أضله الله تعالى .

وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تشبع منه العلماء

،ولا يخلق على كثرة الرد [1] ، ولا تنقضي عجائبه ،وهو الذي لم تنته الجن إذا سمعته حتى قالوا : { إنا سمعنا قرآناً عجباً . يهدي إلى الرشد فآمنا به } .

من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدي إلى صراط المستقيم] [2] .

وإن معارفه وعلومه لا تنفد على مدى العوالم ، وقد ورد أن أهل الجنة لا يزالون يقرؤون القرآن ويترقون به . وتنجلي لهم منه المعارف والعلوم ما شاء الله تعالى .

روى البخاري ، والترمذي وغيرهما ، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : [يقال لصاحب القرآن : اقرأ وارق ، ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها] فهو في الجنة يقرأ ولا يزال يرقى.

وأعظم موقف تتجلى لهم فيه المعارف الإلهية، والأسرار القرآنية، حين يسمعون القرآن من رب العالمين سبحانه وتعالى.

جاء في (الفردوس) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال:[كأن الخلق لم يسمعوا القرآن حين يسمعونه من الرحمن يتلوه عليهم يوم القيامة].

ويشهد لهذا الحديث ما رواه الحكيم الترمذي مرفوعاً : وفيه: [فلا تقر أعينهم كما تقر بذلك، ولم يسمعوا شيئاً أعظم من ذلك ولا أحسن منه][3] الحديث.

فأقول وبالله التوفيق ، لبيان الحق وللسير على أقوم طريق:

---

[1] أي : لا يمل ولا يسأم منه على كثرة ترديده بل هو غض طري دائماً .

[2] رواه الترمذي عن أمير المؤمنين سيدنا علي كرم الله تعالى وجهه ورضي الله عنه

[3] وقد ذكرت نص الحديث في كتابي (تلاوة القرآن المجيد) فارجع إليه.

سورة الفاتحة مكية عند الأكثرين ، وتعد من أوائل ما نزل من القرآن الكريم ، أي: هي ثالث ما نزل .

وقيل: إنها أول ما نزل ولكن رده الجمهور ، فأول ما نزل خمس آيات من أول سورة { أقرأ} ، ثم بعد فترة من الوحي نزلت خمس آيات من أول المدثر، ثم نزلت سورة الفاتحة كما ثبت عند المحققين من العلماء .

وقال بعض السلف : إنها مدنية.

وقال بعضهم: نزلت مرتين: في مكة حين فرضت الصلاة، وفي المدينة لما حولت القبلة إلى الكعبة المعظمة ، ولها أشباه ونظائر من بعض السور ، وبعض الآيات في تعدد نزولها ؛ لأسباب وحكم ليس موضع بيانها هنا[4] .

حكم التعوذ بالله تعالى

قبل قراءة القرآن الكريم

قال الله تعالى : { فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم } .

أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم في هذه الآية الكريمة أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم إذا أراد أن يقرأ القرآن الكريم ، وهذا نظير قوله تعالى : { إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم . . . } أي : إذا أردتم القيام إلى الصلاة .

والأمر بالتعوذ يعم جميع الأمة ، وإنما وجه الخطاب إليه صلى الله عليه وآله وسلم – كما في كثير من الآيات القرآنية – لأنه صلى الله عليه وآله وسلم هو موضع الخطاب من الحق إلى الخلق ، وهو الوجه الأول المتلقي عن الحق ، ثم هو صلى الله عليه وآله وسلم يوجه الخطاب إلى العباد .

فإنه صلى الله عليه وآله وسلم وجه الخطاب ، وواسطة السؤال والجواب ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : { وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان } الآية .

---

[4] وإنما موضع بحثها وأمثالها مما يتعلق بنزول القرآن الكريم ومراتب نزوله وبيان أسباب النزول ، ذلك يذكر في مقدمة علم التفسير إن شاء الله تعالى.

والمعنى : أنت يا رسول الله واسطة السؤال عني ، وأنت واسطة الجواب مني لهم .

والكلام في التعوذ له وجوه متعددة: أهمها ما يلي : أولاً: حكمه، **ثانياً:** صفته، **ثالثاً:** معناه، **رابعاً** : ذكر أهم المواضع التي يسن بها التعوذ.

الأول في حكم التعوذ:

هو سنة عند الجمهور أمام القراءة في الصلاة وغيرها، ولكن في الصلاة يتعوذ في الركعة الأولى عند الحنفية، وأما عند الشافعية فهناك روايتان: رواية بالاكتفاء بالتعوذ في الركعة الأولى من الصلاة، ورواية في كل ركعة من الصلاة.

وذهب بعض العلماء ومنهم عطاء إلى وجوب الاستعاذة ، سواء كانت القراءة في الصلاة أو خارج الصلاة؛ أخذاً بظاهر الأمر في قوله تعالى:{ فاستعذ بالله } فإن الأمر يقتضي الوجوب ما لم يصرفه عن الوجوب صارف، وليس ثمة صارف عند عطاء وغيره.

وقال الجمهور بل الاستعاذة سنة للقراءة في الصلاة وغيرها ، والصارف عن الوجوب هو عدم مواظبته صلى الله عليه وآله وسلم عليها، فإن أفعاله وأقواله هي بيان للقرآن وأحكامه، وقد وردت أحاديث كثيرة فيها القراءة بدون تعوذ:

كحديث أبي سعيد بن المعلى كما في البخاري حين دعاه النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وكان أبو سعيد يصلي فلم يجبه، ثم أجابه بعد الفراغ من الصلاة.

فقال له صلى الله عليه وآله وسلم :[ما منعك أن تجيبني]؟

فقال : إني كنت أصلي.

فقال له:[ألم يقل الله تعالى:{ استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم}- ثم قال له صلى الله عليه وآله وسلم :- لأعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن :{ الحمد لله رب العالمين}] الحديث، وسيأتي نصه تاماً إن شاء الله تعالى.

ونظيره حديث أبي بن كعب رضي الله عنه ، عندما سأله صلى الله عليه وآله وسلم عن أي آية في كتاب الله أعظم.

وحديث لما نزل قوله تعالى:{ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون} فشق ذلك على الصحابة وقالوا: يا رسول الله وأينا لم يظلم نفسه؟- أي: لم يفعل ذنباً ولو من صغائر الصغائر.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم :[ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح :{ إن الشرك لظلم عظيم } هو الشرك] أي: ولم يلبسوا إيمانهم بشرك.

وغير ذلك من الأحاديث التي فيها ذكره صلى الله عليه وآله وسلم آيات من القرآن الكريم ولم يأت فيها بتعوذ.

وقد أجاب من استدل على وجوب التعوذ بأنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يتعوذ سراً- والله تعالى أعلم.

والحكمة في مشروعية التعوذ عند إرادة القراءة هي: **أن قراءة القرآن الكريم هي عبادة عظمى وقربة كبرى.**

والدليل على أنها عبادة قوله صلى اله. عليه وآله وسلم :[من قرأ حرفاً من كتاب الله تعالى فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول { آلم } حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف، وميم حرف].

فمن قرأ حرفاً من كتاب الله تعالى فله به حسنة، ولو بغير فهم ولا حضور قلب، والحسنة بعشر أمثالها، فإذا كانت عن فهم أو حضور قلب تتضاعف إلى سبعين إلى سبعمائة وإلى ما هنالك.

وأما أن تلاوة القرآن الكريم هي قربة إلى الله تعالى ففي حديث الترمذي وغيره، قوله صلى الله عليه وآله وسلم :[وما تقرب العباد إلى الله تعالى بمثله] أي: بمثل القرآن الكريم-.

فإذا كانت تلاوة القرآن الكريم عبادة وقربة إلى الله تعالى ، فهي تتطلب الإخلاص فيها لله تعالى، وإحضار القلب ليعظم الأجر، وإن من شأن الشيطان أن يوسوس للإنسان إذا دخل في عبادة ، ويشاغب عليه ،

فيوسوس له ليشغل قلبه عن الحضور، وليشوش عليه في بعض الأمور ، فجاء الأمر الإلهي بالتعوذ عند قراءة القرآن الكريم؛ ليكون في عياذ منيع من تلك الوساوس ، وحرز حصين ، وبذلك يحضر القلب ، وينشرح للتلاوة، وينفتح القلب ليتذوق تلك الحلاوة، وبذلك يضاعف له أجر التلاوة.

الثاني صفة- صيغة- التعوذ:

ذهب الجمهور من القراء والمحدثين وغيرهم إلى أن كيفية التعوذ قبل القراءة هي:(أعوذ بالله من الشيطان الرجيم)، وهي أكثر الروايات الواردة عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان يستعيذ كذلك.

روى الواحدي والثعلبي ، عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قرأ على النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم.

فقال له صلى الله عليه وآله وسلم :[يا ابن أم عبد قل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، هكذا أقرأنيه جبريل عن اللوح المحفوظ عن القلم].

وقد جاء في (صحيح) البخاري وغيره ، في حديث الرجل الذي اشتد غضبه ، أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال:[إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب ما يجده- أي: غضبه الشديد- لو قال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم...] الحديث كما سيأتي بتمامه إن شاء الله تعالى ص/15/.

نعم قد جاء في الأحاديث عنه صلى الله عليه وآله وسلم كيفيات من التعوذ فيها زيادات على ذلك.

روى أبو داود ، والبيهقي، عن السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها- في ذكر الإفك- قالت: فجلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وكشف عن وجهه الشريف وقال:[أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم{ إن الذين جاءو بالإفك عصبة منكم }] الآية.

ورويا أيضاً – واللفظ لأبي داود- عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا قام من الليل كبر ثم يقول:[سبحانك اللهم وبحمدك ، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله

غيرك]، - ثلاثاً، ثم يقول:[لا إله إلا الله]- ثلاثاً، ثم يقول:[الله أكبر كبيراً]-، ثم يقول: [أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم؛ من همزه ونفخه ونفثه] ثم يقرأ القرآن).

وقد روى نحو ذلك ابن ماجه ، عن عمرو بن مرة وقال: همزه: الموتة، ونفثه: نفخ بلا ريق، ونفخه: الكبر.

وقال ابن ماجه : الموتة يعني: الجنون، والنفث: نفخ الرجل من فيه من غير أن يخرج ريقه، ونفخه: الكبر والتيه.

فللشيطان تخبيل للإنسان ، وهو نوع من الجنون، ونفثات يوجهها على الإنسان ، وقد يتيه الإنسان.

فينبغي للمسلم أن يستعيذ بالله تعالى من ذلك كله.

والكلام على التعوذ هو مفصل في كتب القراءات.

الثالث في معنى: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم:

أعوذ بالله: أتحصن بالله تعالى، وأستجير به، ملتجئاً إليه لأجل أن يحفظني من شر الشيطان الرجيم، ووسواسه، وإفساده علي أمر ديني أو دنياي، فإنه لا يحفظ العبد ويجيره من الشيطان الرجيم: إلا الله تعالى رب العرش العظيم.

والشيطان: في اللغة مشتق من شطن إذا بعد، فهو شيطان- أي: بعيد عن الله تعالى، وعن رحمة الله، وعن كل طبع وخصلة تأتي بخير، فهو على وزن : فيعال.
وقال بعض علماء اللغة : إنه مشتق من شاط إذا احترق، لأنه مخلوق من نار، فهو على وزن: فعلان- والأول أصح.

ويقال لمن تمرد وتباعد عما يرضي الله تعالى من إنس أو جن شيطان، قال تعالى:{ ... شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً}.

وفي (المسند) عن أبي ذر رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال:[يا أبا ذر تعوذ بالله من شياطين الإنس والجن].

فقلت: أو للإنس شياطين؟

قال:[نعم].

والرجيم: معناه المرجوم، وأصل الرجم الرمي بالحجارة، فالشيطان رجيم مرمي بلعنة الله تعالى ، ومطرود عن رحمته، فهو طريد مهين.

ولولا أن للشيطان تأثيراً في الشر والفساد على ابن آدم؛ ما أمرنا الله تعالى أن نستعيذ بالله منه، فإنه لا يقينا شره وضره ووسواسه وهمزاته ونفثاته إلا الله العلي العظيم- أعاذنا الله العظيم من الشيطان الرجيم، ومن شياطين الإنس والجن كلهم.

وقد علم النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمته التعوذ بالله من الشيطان الرجيم في مواضع متعددة بصيغ متنوعة.

الرابع: التعاويذ التي ينبغي الاهتمام بها:

١ -عند اشتداد غضب الإنسان إذا اختصم مع غيره:

وقد تقدم ص/13/ حديث الرجل لما اشتد غضبه.... وهو متفق عليه ، ولفظ مسلم:

عن سليمان بن صرد قال: (استب رجلان عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فجعل أحدهما يغضب ويحمر وجهه، وتنتفخ أوداجه، فنظر إليه صلى الله عليه وآله وسلم فقال:[إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه، يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم].

فقام رجل ممن سمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال : هل تدري ما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم آنفاً؟ قال: [إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه- أي: الغضب – أعوذ بالله من الشيطان الرجيم].

فقال له الرجل: أمجنون تراني).

فلا تغضب يا أخي ، وإذا غضبت فتعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

2-التعوذ عند إرادة الخلاء:

روى ابن أبي شيبة وغيره ، عن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا دخل – أي: أراد أن يدخل- الكنيف قال:[بسم الله، اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائثِ].

والمقصود من التسمية هنا إلقاء الستر بين الجن وبين عورات ابن آدم، كما جاء في (سنن) الترمذي وابن ماجه، عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه وكرم وجهه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال:[ستر ما بين الجن وعورات ابن آدم إذا دخل أحدهم الخلاء – أي: أراد الخلاء – أن يقول: بسم الله].

فالتسمية هنا للستر، والتعوذ للتوقي والحفظ من تحرش الشيطان – فافهم سر التسمية والمقصود منها حسب المواضع الواردة.

3- التعوذ عند دخول المسجد للحفظ من وسواس الشيطان في الصلاة والعبادة وغير ذلك :

روى أبو داود، عن ابن عمر قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا دخل المسجد قال:[أعوذ بالله العظيم ، وبوجهه الكريم، وبسلطانه القديم، من الشيطان الرجيم]، وقال صلى الله عليه وآله وسلم :[إذا قال العبد ذلك: حفظ منه – أي: من الشيطان – سائر اليوم] وسيأتي أنه تسن التسمية أيضاً والصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم عند دخول المسجد ص/46/.

4-التعوذ عند إرادة السفر:

روى الترمذي ، عن عبد الله بن سرجس قال: كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا سافر يقول:[اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنقلب، وسوء المنظر في المال والأهل، ومن الحور بعد الكور، أي: من الفساد بعد الصلاح- ومن دعوة المظلوم ، اللهم اصحبنا في سفرنا هذا ، واخلفنا في أهلنا].

5-تعوذ المسافر إذا حل في مكان أو نزل منزلاً:

روى مسلم، والترمذي، عن خولة بنت حكيم رضي الله عنها، أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول:[من نزل منزلاً فقال: أعوذ بكلمات الله التامة من شر ما خلق- لم يضره شيء حتى يرتحل].

6-التعوذ من شرور الشياطين، والتحصن من إيذائها:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه آله وسلم :[رأيت ليلة أسري بي عفريتاً من الجن يطلبني بشعلة من نار، كلما التفت رأيته.

فقال لي جبريل عليه السلام: ألا أعلمك كلمات تقولها فتطفئ شعلته، ويخر ليفه] – أي: يسقط على وجهه-؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : بلى].

فقال جبريل عليه السلام: قل: أعوذ بوجه الله الكريم ، وبكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر، من شر ما ينزل من السماء وشر ما يعرج فيها و ومن شر ما ذرأ في الأرض وشر ما يخرج منها، ومن فتن الليل والنهار، ومن طوارق الليل والنهار؛ إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن].

وفي (مسند) الإمام احمد ، عن عبد الرحمن بن خنبش رضي الله عنه أن رجلاً سأله كيف صنع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليلة كادته الشياطين؟

فقال: (إن الشياطين تحدرت تلك الليلة على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الأودية والشعاب، وفيهم شيطان بيده شعلة من نار، يريد أن يحرق بها وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فهبط إليه جبريل عليه السلام فقال له : يا محمد قل.

قال:[ما أقول؟

قال- جبريل عليه السلام-: قل: أعوذ بكلمات الله التامات: من شر ما ينزل من السماء ومن شر ما يعرج فيها، ومن شر ما ذرأ في الأرض ومن شر ما يخرج منها، ومن شر فتن الليل والنهار، ومن شر كل طارق إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن].

فطفئت نار الشياطين وهزمهم الله عز وجل)[٥].

7-التعوذ من الفزع في النوم والأرق:

روى أصحاب السنن، وأحمد وغيرهم، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعلمنا كلمات نقولهن عند النوم من الفزع:[بسم الله ، أعوذ بكلمات الله التامات من: غضبه وعقابه وشر عباده، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون].

وروى الإمام أحمد وغيره، عن خالد بن الوليد رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله إني أجد في النوم وحشة، وفي رواية: إني أروع في منامي.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم :[إذا أخذت مضجعك فقل: أعوذ بكلمات الله التامة من : غضبه وعقابه وشر عباده، ومن همزات الشياطين ، وأن يحضرون- فإنه لا يضرك].

8-التعوذ من الهوام ومما يلدغ:

روى الترمذي وغيره، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :[من قال حين يمسي ثلاث مرات: أعوذ بكلمات الله التامة من شر ما خلق – لم يضره لدغة حية في تلك الليلة].

وفي رواية البيهقي:[لم يلدغ ولم يضره] – أي: لا يضره لدغة أي هامة تلدغ ، من حية أو عقرب أو غيرهما.

9-التعوذ إذا سمع نهيق الحمير أو نباح الكلاب:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :[إذا سمعتم أصوات الديكة[٦] فسلوا الله من فضله[٧]، فإنها رأت ملكاً.

---

[٥] المسند : 3/ 419.

[٦] قال العلامة المناوي رحمه الله تعالى: الديكة: بكسر ففتح جمع ديك ويجمع قليلاً على أدياك وديوك.اه.

وإذا سمعتم نهيق الحمير فتعوذوا الله من الشيطان فإنها رأت شيطاناً] رواه البخاري ومسلم، والترمذي وأبو داود وغيرهم.
وروى الإمام أحمد ، وابن حبان وغيرهما، عن جابر رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال:[إذا سمعتم نباح الكلاب ونهيق الحمير بالليل فتعوذوا بالله من الشيطان ، فإنهن يرين ما لا ترون] الحديث.

10-التعوذ إذا رأى في النوم ما يكرهه أو يحزنه:

روى الإمام مسلم عن أبي قتادة رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال :[الرؤيا الصالحة من الله تعالى، والرؤيا السوء من الشيطان، فمن رأى رؤيا فكره منها شيئاً : فلينفث عن يساره، وليتعوذ بالله من الشيطان – أي: بعد ما يستيقظ- ولا يخبر بها أحداً .
فإن رأى رؤيا حسنة فليبشر ولا يخبر بها إلا من يحب].
وروى البخاري وغيره نحو هذا الحديث.

بسم الله الرحمن الرحيم

الكلام على البسملة يتناول أمرين:

الأمر الأول : شرح مفرداتها :

الاسم: هو ما دل على مسماه، **فقد يراد به الاسم نفسه**، نحو: كتبت الله ، أي: هذا الاسم، ونطقت بالله، أي: بهذا الاسم ، **وقد يراد به المسمى** نحو: عبد لله، قال تعالى:{ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً } فالمراد به المسمى.
والله هو اسم علم، دال على ذات الله تعالى رب العالمين الإله المعبود حقاً ، متصفاً بجميع الكمالات المطلقة التي لا تعد ولا تحصى، ولا تحد ولا تستقصى، **ومنزهاً** عن جميع العيوب والآفات، المتفرد بوجوب الوجود، ولم يتسم بهذا الاسم غيره سبحانه، ولن يتسم به غيره ، ولذا لم يثن ولم يجمع.

---

[٧] لأن الدعاء بحضور الملك مجاب لتأمينه على الدعاء، واستغفاره له، ونزول الرحمة بحضره، قال العلماء: وهذا يدل على استحباب الدعاء عند حضور الصالحين.

وهذا الاسم الجليل له خصائص متعددة أذكر بعضاً منها:
1-هذا الاسم هو جامع الأسماء الإلهية الظاهرة والباطنة،على الوجه الذي لا نهاية له كما هو أهله سبحانه ،لأن أسماءه تعالى هي على حسب صفات كماله، وصفات كماله ما لها نهاية،فأسماؤه ما لها نهاية ، وقد جاء في الحديث :[أسألك بأسمائك الحسنى كلها ما علمنا منها وما لم نعلم] الحديث، فمنها الظاهر ، ومنها الباطن، وفي الحديث:[أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ، ونور بصري، وجلاء حزني، وذهاب همي وغمي] آمين فهناك أسماء إلهية استأثر الله تعالى بعلمها لم تظهر.
وجميع الأسماء الإلهية هي داخلة في دائرة هذا الاسم، ولهذا يقال له الاسم الأعظم، كما قال ابن عباس : (اسم الله الأعظم هو :الله)[٨]، وكما قال جابر بن يزيد : اسم الله الأعظم هو الله، ألا ترى أنه في جميع القرآن يبدأ به قبل كل اسم.اه[٩].
2-وهذا الاسم هو المتبوع ، وجميع الأسماء تابعة له، قال تعالى:{ هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى} الآية، فترى أن اسم الخالق والبارئ والمصور كلها تابعة لاسم الجلالة {الله} على طريق الوصف والنعت.
3-هذا الاسم الجليل {الهع} تعلقت به جميع العوالم بذراتها وبأنواعها قال تعالى:{ يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد}. فجميع العباد يقولون يا ألله، دعاء أو سؤالاً، نداء أو ذكراً ، أو مناجاة، ولكن في الحقيقة كل واحد منهم متعلق باسم خاص، داخل في دائرة اسم الله الذي هو اسم الجلالة، وإنما يتبين ذلك الاسم من الحال الذي فيها الداعي، أو الذاكر، أو المناجي، أو السائل، فمقتضى

---

[٨] رواه ابن مردويه وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما .
[٩] رواه ابن أبي شيبة والبخاري في (تاريخه)، وابن الضريس، وابن أبي حاتم، وروى ابن أبي شيبة وابن أبي الدنيا عن الشعبي أنه قال: اسم الله الأعظم : يا ألله. اه.

حال القائل يا ألله، هو الذي يدلك على الاسم الخاص الذي تعلق به، فالمريض يقول: يا ألله، والفقير يقول: يا ألله، وضعيف القوى يقول: يا ألله، والضال يقول: يا ألله، والمظلوم يقول: يا ألله.

فالكل متعلقون بهذا الاسم الجليل، ولكن الذي يجيب كل واحد منهم هو الاسم الذي يقتضيه حاله.

فقول المريض: يا ألله أي: يا شافي.

وقول المحتاج: يا ألله أي: يا كافي.

وقول الضعيف العاجز : يا ألله أي: يا قوي.

وقول المظلوم : يا ألله أي: يا ناصر من لا ناصر له ا نصرني على من ظلمني.

وقول المبغي عليه والمعتدى عليه: يا الله أي: يا منتقم.

فيجيبه الاسم الخاص كما هو مقتضى حاله، وذلك الاسم هو داخل في دائرة اسم الجلالة : **الله جل وعلا.**

4-ومن خصائص اسم الجلالة { الله} أنك إذا أدخلت عليه ياء النداء تبقى الألف ثابتة تقول: يا ألله بألف ثابتة، ولو دخلت على غيره من الأسماء لحذفت الألف كما هو معلوم في لغة العرب.

5-ومن خصائص هذا الاسم الجليل ملازمة الألف واللام له، فهما من ذات الاسم الجليل ، وليسا بزائدين.

6-ومن خصائص هذا الاسم الجليل أنه قد تحذف ياء النداء من أوله وتعوض عنها ميم مشددة فيقال : اللهم.

7-ومن خصائص هذا الاسم الجليل{ الله} حيثما تصرفت حروفه دلك على الله تعالى:

فإذا حذفت منه الألف صار (لله)، قال تعالى:{ لله ما في السموات وما في الأرض}.

فإذا حذفت منه الألف واللام الأولى صار (له)، قال تعالى:{ له ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً }.

وإذا حذفت الألف واللامان صار (هو) قال تعالى:{ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء} الآية.

ولهذا الاسم الجليل خصائص وفضائل كثيرة مذكورة في كتب المطولات .
الرحمن: هذا الاسم مما اختص الله تعالى به، وهو اسم دال على رحمته سبحانه العامة لجميع الكائنات على مختلف أنواعها ، وهذه الرحمة هي المذكورة في قوله تعالى:{ ورحمتي وسعت كل شيء } فهذه الرحمة عمت وشملت كل شيء يقال له شيء ، ولذلك قال تعالى:{ الرحمن على العرش استوى } فاستوى باسمه الرحمن على العرش المحيط بما هنالك كله، فالعرش وما حواه من العوالم التي لا يعلمها إلا الله تعالى محاط باسم الرحمن، واستواؤه سبحانه على العرش هو كما جاء عن أئمة السلف الصالح ، ومن أشهرهم الإمام مالك رحمه الله تعالى للسائل عن آية { الرحمن على العرش استوى} فأطرق الإمام ثم قال: الاستواء معلوم ، والكيف مجهول، والإيمان به واجب. اه.
نعم لأنه سبحانه ليس كمثله شيء، فاستواؤه ليس مثله شيء، ولا يقتضي التحيز ولا التجسيم، ولا التمثيل ولا التشبيه، فهو سبحانه كان ولا مكان، وهو الآن على ما عليه كان سبحانه وتعالى.
فقوله سبحانه:{ الرحمن على العرش } عم برحمته جميع خلقه من الملأ الأعلى والأدنى، والإنس والجن، والمؤمنين والكفار، فرحمانيته وسعت الكل، فهو يمد الكل بالإيجاد والإمداد، والهواء والماء والغذاء، ويعطيهم جميع ما تتطلبه وجودهم وحياتهم وبقاؤهم.
الرحيم: فهو يدل على الرحمة الخاصة ، فإما أن تكون خاصة بطائفة من العباد المرحومين وهم أهل الإيمان، وإما أن يكون خصوصها بتناولها أنواعاً خاصة من الرحمة؛ وإن كانت عامة لجميع العباد.
والمعنى: أنها قد يراد بها خصوص نوع المرحومين بها أو نوع من أنواعها.
فالأول: وهو أن اسم الرحيم هو اسم لله تعالى دال على رحمته الخاصة بمن شاء، يدل على قوله تعالى:{ يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم} فهو سبحانه يخص من يشاء بما شاء من

أنواع الرحمة اختصاصاً، وهذه الرحمة الخاصة على أنواع متعددة، ومراتب مختلفة:

فمنها نعمة الإيمان، قال تعالى :{وكان بالمؤمنين رحيماً}، وقال تعالى:{ ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً }.

فمن هذه الرحمة نعمة الإيمان المذكورة في قوله تعالى:{ ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون . فضلاً من الله ونعمة والله عليم حكيم}.

فذكر هناك الفضل والرحمة فقال:{ ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً }. ثم ذكر هنا الفضل والنعمة أي: نعمة الإيمان التي هي من تلك الرحمة الخاصة فافهم.

ومنها نعمة النبوة، قال تعالى:{ ووهبنا له من رحمتنا أخاه هرون نبياً}.

وقال تعالى:{ وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك }.

وقال تعالى:{ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم . أهم يقسمون رحمة ربك }.

ومن هذه الرحمة الخاصة ما أكرم الله تعالى به عباده المؤمنين، وما يكرم به أولياءه المكرمين، وأنبياءه المصطفين، قال تعالى:{ إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشداً}.

وقال تعالى- إخباراً عن الراسخين في العلم أنهم يسألونه هذه الرحمة- :{ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب }.

وقال تعالى- لحبيبه الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم :{ فبما رحمة من الله لنت لهم } الآية.

فجميع ذلك من أنواع الرحمة الخاصة.

كما أن الرحمة العامة هي أيضاً على أنواع متعددة .

وأنواع الرحمة العامة والخاصة لا يعلمها إلا الله تعالى ، وبهذا التقسيم المتقدم من أن الرحمة منها عامة ومنها خاصة ، ولكل واحدة مراتب وأنواع نعلم أنه لا تعارض بين قوله تعالى :{ ورحمتي وسعت كل شيء} حيث عمم، وبين قوله تعالى:{ يختص برحمته من يشاء } حيث خصص.

فإن قيل: فما معنى قوله تعالى :{ ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآيتنا يؤمنون }.

فخص بعد ما عم ؟

فالجواب: أن المراد بالكتابة التثبيت والتحتيم، كما قال سبحانه:{ وإذا جاءك الذين يؤمنون بآيتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة } والمعنى أوجبها لهم وحتمها .

أو المراد بالكتابة الجمع، أي: فسأجمع أنواع الرحمة العامة بما فيها من الرحمة الخاصة للذين يتقون- فإن الكتابة قد تطلق على الجمع ومنه كتيبة الجيش.

أو المراد بقوله:{ فسأكتبها } الضمير يعود إلى الخاصة من باب الاستخدام، وهو : إعادة الضمير على الكلمة وإرادة معنى آخر، لكن بينهما ارتباط من وجه : **إما سببية ومسببية** كما في قول الشاعر:

إذا نزل السماء بأرض قوم – أي: المطر-

رعيناه إن كانوا غضابا

أي: رعينا عشبه وخصبه.

أو عموم وخصوص ونحو ذلك كما هو مفصل في نوع البديع من البلاغة ؛ والمعنى: فسأخص وأمنح خاصة الرحمة{ للذين يتقون...} إلى آخر الآية.

فمن هذه الرحمة الخاصة تخرق العادات : وتظهر للأنبياء المعجزات ، وللأولياء الكرامات .

قال تعالى:{ ذكر رحمت ربك عبده زكريا}، فإنه سبحانه وهبه يحيى عليهما السلام على كبر سنه وعقر امرأته .

وقال تعالى في أصحاب الكهف :{ فضربنا على ءاذانهم في الكهف سنين عدداً } بعد كا دعوا فقالوا:{ ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشداً}.

فهي رحمة خاصة لدنية ، تخرق الأسباب العادية، ولذلك قال سيدنا زكريا عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام :{ فهب لي من لدنك ولياً}.

وأما الثاني : وهي الخاصة بذكر نوع من الرحمات الخاصة، قال تعالى:{ ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيماً }، وقوله تعالى :{ ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرءوف رحيم }.

وسيأتي بقية الكلام على الفوارق بين الرحمة العامة والخاصة في سورة الفاتحة إن شاء الله تعالى.

وهنا تنبيهات فيها تفهيمات ينبغي للمؤمن اللبيب أن يعرفها:

الأول: اعلم أن اسم الرحمن والرحيم باقترانهما يكونان من جملة الاسم الأعظم الذي إذا دعي الله تعالى به أجاب، وإذا سئل به أعطى، كما في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره، عن أسماء بنت يزيد ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال:[اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين :{ وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم} وقوله تعالى :{ آلم . الله لا إله إلا هو الحي القيوم }].

ومن المعلوم أن الاسم الأعظم الذي هو أجمع لجميع الأسماء الإلهية هو الله اسم الجلالة، والأسماء الإلهية كلها تابعة له، ومجموعة فيه ، وأما الاسم الأعظم الذي إذا دعي الله تعالى به أجاب، وإذا سئل به أعطى فهو متعدد كما بينت ذلك في كتاب (الدعاء) مع الأدلة من الأحاديث النبوية.

ومن ذلك اسم الرب، وفي الحديث :[إذا قال العبد : يا رب يا رب يا رب ، قال الله تعالى : لبيك عبدي سل تعطه][١٠] وسيأتي الكلام على اسم الرب.

الثاني: واعلم أن اسم الرحمن إذا اقترن باسم الرحيم دل اسم الرحمن على الرحمة العامة، ودل اسم الرحيم على الرحمات

---

[١٠] رواه ابن أبي الدنيا عن السيدة عائشة رضي الله عنها.

الخاصة ، وإذا أفرد اسم الرحمن بالذكر شمل وعم الرحمات الخاصة أيضاً ، قال تعالى:{ الرحمن . علم القرآن . خلق الإنسان. علمه البيان . الشمس والقمر بحسبان } إلى تمام السورة.
فبدأ سورة الرحمن باسمه الرحمن، ثم ذكر ما شمله اسم الرحمن من أنواع النعم وأصناف الامتنان ، فكلما ذكر نوعاً من الرحمة أردفها بذكر النعمة و المنة فيقول سبحانه:{ فبأي آلاء ربكما تكذبان }.
فذكر نعماً ورحمات عمت جميع الثقلين ، مؤمنهم وكافرهم، وبرهم وفاجرهم، ثم ذكر نعمه الخاصة ، ورحمته الخاصة بالمؤمنين ، قال تعالى:{ ولمن خاف مقام ربه جنتان ..} الآيات.
فهذا كله داخل تحت اسم الرحمن الذي بدأ به السورة ، فجميع أصناف الامتنان المذكورة في السورة هي مظاهر لاسم الرحمن وآثاره.
قال تعالى:{ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً }.
فشمل اسم الرحمن هنا اسم الرحيم أيضاً ، لأن المتقين حشروا إلى رضوان الله تعالى وجنته، وهي من الرحمة الخاصة التي قال تعالى فيها :{ وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون}.
فنال المتقون أنواع الرحمات الإلهية العامة والخاصة .
الثالث: الحكمة في تخصيص هذين الاسمين في البسملة.
لقد تعرف سبحانه إلى عباده بهذين الاسمين ، فأعلنهما وصفين لاسم جلالته، الذي بدأ به الأمور كلها فقال سبحانه:{ بسم الله الرحمن الرحيم } مخصصاً لذكر صفة الرحمن والرحيم ، وفي هذا وجوه من الحكم :
أولاً : ليعرف عباده بأن الله تعالى الذي هو ربهم هو الرحمن الرحيم، ليحببهم به فيتقربوا إليه حباً فيه، وطمعاً فيما عنده من الرحمات التي لا تحصى أنواعها.
قال تعالى:{ وإن ربكم الرحمن} الآية.
فهو سبحانه رب العالمين ، رباهم برحمته، وغذاهم بنعمته، والتربية الكاملة لا تقوم إلا على أساس الرحمة، ولذلك لما خلق الخلق كتب في كتاب عنده فوق العرش : [إن رحمتي سبقت غضبي] الحديث.

وفي رواية :[كتب على نفسه كتاباً فهو عنده فوق العرش : إن رحمتي سبقت غضبي].
وفي رواية :[غلبت]، وفي رواية:[تغلب] ، وكلها وارد في الصحاح.
فإن رحمته سبقت غضبه ، وغلبت غضبه ، وتغلب غضبه.
فحتم على نفسه سبحانه أن يرحم جميع مخلوقاته ، أعلن ذلك لما خلق الخلق سبحانه، فهو أرحم بعباده وسائر مخلوقاته من أنفسهم، فإن رحمتهم لأنفسهم هي من مظاهر اسم الرحمن، كما جاء في الحديث الذي رواه الشيخان، والترمذي، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه و آله وسلم :[جعل الله الرحمة مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين- أي: جزءاً، وفي رواية مسلم:[ليوم القيامة]- وأنزل في الأرض جزءاً واحداً ، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق ،- أي: فيما بينها – حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه] .
وفي رواية لمسلم : [إن الله تعالى خلق بعد خلق السماوات والأرض مائة رحمة ، كل رحمة طباق ما بين السماء الأرض ، فجعل منها في الأرض رحمة واحدة ، فبها تعطف الوالدة على ولدها ، والوحش والطير بعضها على بعض ، فإذا كان يوم القيامة أكملها الله تعالى بهذه الرحمة] .
ثانياً : إن اسم الرحمن هو محيط بجميع الأكوان ، وآثاره مشهودة بالعيان ، وثابتة بالبرهان ، وهي شاملة للإنسان والحيوان والطيور، وجميع عوالم الملك والملكوت والدنيا والآخرة .
فخلق الإنسان والجان بالرحمة ، قال تعالى في سورة الرحمن التي بين سبحانه فيها مظاهر رحمانيته فقال : { الرحمن. علم القرآن. خلق الإنسان . . . } الآيات.

ثم رباه بالرحمة ، فأودعه الرحم ، والرحم شجنة من الرحمن [11]، ثم غذاه بالرضاع ثم بالماء والغذاء والهواء، وأحاطه بأنواع من النعم ، كل ذلك من آثار اسم الرحمن.

وهكذا الزمان المشتمل عليهم والمكان المحيط بهم، قال تعالى:{ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون }.

الأمر الثاني: بيان هل هي آية مستقلة أم آية من كل سورة من القرآن الكريم:

ذهب بعض الأئمة من السلف الصالح رضي الله عنهم إلى أن البسملة هي من القرآن الكريم، نزلت مستقلة ، بمعنى : أنها ليست من سورة معينة، بل هي من القرآن ، كما تقول: سورة الإخلاص سورة من القرآن، وضعت آية البسملة أمام كل سورة ، للفصل بين السور.

وذهب بعض الأئمة إلى أن البسملة هي من سورة الفاتحة خاصة، ولكن وضعت هذه الآية أمام كل سورة للفصل بين السور.

وذهب الأئمة الكثيرون إلى أن البسملة هي آية من كل سورة بعدها، فمن قرأ السورة ولم يأت ببسملة فقد قرأ السورة ناقصة، وهذا القول- وهو أن البسملة أمام كل سورة ، هي آية من السورة التي بعدها- هو القول الجامع بين الأقوال ، وله أدلة كثيرة وصريحة أذكر بعضاً منها:

روى أبو داود ، والإمام أحمد ، وابن خزيمة في (صحيحه) والحاكم في (المستدرك) عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقطع قراءته – أي: يقرأ آية

---

[11] كما جاء في (سنن) أبي داود والترمذي وغيرهما ، عن ابن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : [الراحمون يرحمهم الله تعالى ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء ، الرحم : شجنة من الرحمن – أي: مشتبكة بهذا الاسم كاشتباك العروق – من وصلها وصله الله تعالى، ومن قطعها قطعه الله تعالى].

آية- { بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين }.

وروى البخاري ، وابن أبي شيبة ، والدار قطني ، وغيرهم عن أنس رضي الله عنه أنه سئل عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال : (كانت مداً ، ثم قرأ { بسم الله الرحمن الرحيم} يمد بسم الله ، ويمد الرحمن، ويمد الرحيم).

وروى الدار قطني ، والبيهقي في (سننه) بسند صحيح ، عن عبد بن خير قال: سئل علي رضي الله عنه عن السبع المثاني ، فقال: (الحمد لله رب العالمين} – أي: سورة الفاتحة.

فقيل له : إنما هي ست آيات ، فقال :{ بسم الله الرحمن الرحيم } آية – أي : من الفاتحة-.

وروى الطبراني في (الأوسط) ، وابن مردويه في (تفسيره) والبيهقي، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :[{ الحمد لله رب العالمين} سبع آيات: { بسم الله الرحمن الرحيم } إحداهن، وهي السبع المثاني والقرآن العظيم ، وهي أم القرآن ، وهي فاتحة الكتاب...].

فالبسملة آية من الفاتحة ، وهي آية من كل سورة بعدها.

والدليل على ذلك أيضاً:

روى أبو داود ، والبزار، والطبراني ، والحاكم في (مستدركه)والبيهقي في (المعرفة) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا يعرف فصل السورة ، وفي رواية: خاتمة السورة حتى ينزل عليه :{ بسم الله الرحمن الرحيم}.

زاد الطبراني في روايته: فإذا نزلت { بسم الله الرحمن الرحيم } عرف أن السورة – أي: السابقة – قد ختمت ، وابتدئت سورة أخرى.

فقول ابن عباس رضي الله عنهما : حتى ينزل عليه :{ بسم الله الرحمن الرحيم } صريح في أن البسملة كانت تنزل مع نزول كل سورة .

وروى الطبراني ، والحاكم وصححه، والبيهقي في (الشعب) عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا جاء جبريل فقرأ : { بسم الله الرحمن الرحيم } علم أنها سورة – أي: نزلت سورة أخرى غير السورة السابقة في النزول.

فقوله : فقرأ:{ بسم الله الرحمن الرحيم } هذا صريح أنها من السورة.

ويؤيد ذلك ما رواه الأئمة الخمسة ، عن أنس رضي الله عنه قال: بينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في المسجد إذ أغفى إغفاءة ، ثم رفع رأسه ضاحكاً.

فقيل: ما أضحكك يا رسول الله ؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم :[نزلت علي سورة آنفاً- أي: الآن- فقرأ { بسم الله الرحمن الرحيم. إنا أعطيناك الكوثر}] حتى ختمها.

ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم :[أتدرون ما الكوثر]؟

قلنا : الله ورسوله أعلم.

قال:[إنه نهر وعدنيه ربي عز وجل ، عليه خير كثير ، وهو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة ، آنيته عدد نجوم السماء، فيختلج العبد] – يعني : أن بعض الناس في الموقف يأتون إلى الحوض ليشربوا ، فيؤخذ بهم ويبعدون عنه.

قال صلى الله عليه وآله وسلم :[فأقول : رب إنه من أمتي . فيقول : ما تدري ما أحدث بعدك] .

وهؤلاء هم المرتدون بعد إيمانهم – والعياذ بالله تعالى .

وقول أنس رضي الله عنه : أغفى إغفاءة : يريد أنه صلى الله عليه وآله وسلم اعترته حالة الوحي ، وهي الكيفية التي قال فيها صلى الله عليه وآله وسلم حين سئل : كيف يأتيك الوحي ؟

قال : [**أحياناً** يأتيني في مثل صلصلة الجرس [١٢] ، وهو أشده علي ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال ، **وأحياناً** يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول . .] الحديث كما في البخاري وغيره .
فإذا جاء الوحي على الكيفية الأولى – أي : دون أن يتمثل له الملك رجلاً – ففي هذه الحالة يحمر وجهه الشريف صلى الله عليه وآله وسلم ، ويظل ساكتاً فلا يكلمهم ولا يكلمونه ، لأنه يتلقى الوحي عن جبريل عليه السلام ، وسيدنا جبريل عليه السلام وقتئذ على حقيقته الملكية الجبريلية دون تمثل .
والوحي النبوي له كيفيات متعددة ليس موضع تفصيلها هنا .
ومما يدل على أن البسملة هي آية من السورة بعدها :
أخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وأبو يعلى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ،وأبو نعيم ، والبيهقي في (الدلائل) ، وابن عساكر ، عن جابر رضي الله عنهما قال : قال أبو جهل في ملأ من قريش : قد انتشر علينا أمر محمد – صلى الله عليه وآله وسلم – فلو التمستم رجلاً عالماً بالسحر والكهانة والشعر – أي : حتى يذهب إليه فيكلمه .
فقال عتبة بن ربيعة : علمت من ذلك علماً، وما يخفى علي إن كان كذلك .
فأتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال له : فيم تشتم آلهتنا ، وتضلل آباءنا ، فإن كنت تريد الرياسة عقدنا ألويتنا لك فكنت رأسنا ما بقيت ، وإن كان بك الباءة زوجناك عشرة ؛ تختار من أي بنات قريش ، وإن كان بك الحاجة جمعنا لك من أموالنا ما تستغني به أنت وعقبك – أي : ذريتك من بعدك – وأطال الكلام .
قال جابر: ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ساكت لا يتكلم – نعم لأن الوحي ينزل عليه - .

---

[١٢] وجه التشبيه هو في تتابع الكلام الذي يلقيه عليه جبريل عليه السلام ، فإن جبريل عليه السلام هو ملك لا يتوقف إلقاؤه الكلام على نفس حتى ينقطع الكلام بانقطاع النفس – وليس وجه التشبيه بصوت الجرس في نغمته ، ولذا قال : [في مثل صلصلة الجرس] اه .

فلما فرغ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : [أفرغت يا أبا الوليد] ؟
قال : نعم .
قال : [فاستمع مني] .
قال عتبة : أفعل – أي : أسمع - .
فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : { بسم الله الرحمن الرحيم حم. تنزيل من الرحمن الرحيم. كتاب فصلت ءاياته قرءاناً عربياً لقوم يعلمون . . . } فقرأ حتى بلغ : { فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود } .
فأمسك عتبة على فيه وقال : أناشدك الرحم أن تكف عنه .
ثم رجع عتبة إلى قومه ، فقال : يا قوم أطيعوني في هذا اليوم ، واعصوني بعده ، والله لقد سمعت من هذا الرجل كلاماً ما سمعت مثله قط ، اتركوا الرجل واعتزلوه ، فو الله ما هو بتارك ما هو عليه ، وخلوا بينه وبين سائر العرب ، فإن يكن يظهر عليهم يكن شرفه شرفكم، وعزه عزكم – أي : تتشرفون بشرفه وتعتزون بعزته – وملكه ملككم ، وإن يظهروا عليه تكونوا قد كفيتم بغيركم .
فقالوا: صبأت يا أبا الوليد – أي : ملت إلى جانب محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وأعجبك أمره ، وتركت ما عليه قومك من عبادة الأصنام .
فقال : يا قوم والله لقد سمعت منه كلاماً ما هو بسحر ولا بشعر ولا كهانة ، سمعته يقول : { فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود } فناشدته الرحم حتى يكف ، وقد علمتم أن محمداً – صلى الله عليه وآله وسلم – إذا قال شيئاً لم يكذب ، فخفت أن ينزل بكم العذاب . اه .
وقد أدخلت فيما ذكرته بعض الروايات على بعض لتتم الفائدة .
ومما يدل على أن البسملة آية من كل سورة بعدها أنها مكتوبة أمام كل سورة ، وقد منعوا أن يكتبوا مع القرآن غيره ، حتى إنهم – أي : الصحابة رضي الله عنهم – كانوا لا يكتبون العلامات الدالة على الأعشار والأخماس ونحو ذلك ؛ لئلا يختلط بالقرآن ما ليس بقرآن ،

فلو لم تكن البسملة آية من كل سورة ما كتبوها أمام كل سورة.
هذا وقد أجمع السلف الأول على أن ما بين الدفتين هو كلام الله تعالى، والبسملة مكتوبة بين كل سورتين بين الدفتين.
وقد ورد في الأحاديث النبوية ما يدل على أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان كثيراً ما يجهر بالبسملة في الصلوات الجهرية، وكان يسر بها أحياناً ، يدل على ذلك مما يلي :
روى الدار قطني والبيهقي ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا قرأ وهو يؤم الناس افتتح ب {بسم الله الرحمن الرحيم }.
قال أبو هريرة : هي آية من كتاب الله تعالى، اقرؤوا إن شئتم فاتحة الكتاب كاملة، فإنها الآية السابعة.
وروى ابن أبي شيبة ، والإمام أحمد، وأبو داود ، وابن الأنباري، وابن خزيمة في (صحيحه) وابن سعد في (الطبقات)، والدار قطني، والحاكم وصححه، والخطيب وابن عبد البر كلاهما في (كتاب المسألة) عن أم سلمة رضي الله عنها : (أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يقرأ:{ بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين. إياك نعبد وإياك نستعين . اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين} قطعها آية آية) الحديث كما في (الدر المنثور).
وأخرج أبو داود ، والترمذي، والدار قطني، والبيهقي، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يفتتح صلاته ب {بسم الله الرحمن الرحيم } –أي: فكان الصحابة يسمعون ذلك جهراً.
وروى البزار ، والدار قطني والبيهقي في (الشعب) من طريق أبي الطفيل قال: سمعت علي بن أبي طالب وعماراً رضي الله عنهما يقولان : (إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يجهر في الصلوات المفروضة الجهرية ب {بسم الله الرحمن الرحيم } في فاتحة الكتاب).

وروى الدار قطني ، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: (كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يجهر ب { بسم الله الرحمن الرحيم } في السورتين جميعاً).

أي: يجهر بالبسملة قبل الفاتحة ، وبالبسملة من السورة التي يقرؤها بعد الفاتحة في الصلاة الجهرية .

وأما الدليل على أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يسر بالبسملة أحياناً في الصلوات الجهرية ، ففي (الصحيحين) عن أنس رضي الله عنه قال: صليت خلف النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأبي بكر وعمر وعثمان فكانوا يفتتحون ب { الحمد لله رب العالمين}.

وروى مسلم ، عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يفتتح الصلاة بالتكبير ، والقراءة ب {الحمد لله رب العالمين }.

أي: يفتتح القراءة في الصلاة بسورة {الحمد لله رب العالمين } لا بغيرها من السور- أي: فما كان يفتتح القراءة في الصلاة ب {قل هو الله أحد} ولا بغيرها من السور- وأما البسملة فيسر بها لا أنه يتركها ، وهذا محمول على بعض الأحيان ، بدليل إثبات جهره صلى الله عليه وآله وسلم بها في الأحاديث المتعددة المتقدمة، التي هي بمجموعها حجة قاطعة في الاستدلال على الجهر بها.

وأما ما جاء في رواية لمسلم : عن أنس رضي الله عنه قال: (صليت خلف النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأبي بكر وعمر وعثمان فكانوا يفتتحون ب{الحمد لله رب العالمين } لا يذكرون {بسم الله الرحمن الرحيم} في أول قراءة ولا في آخرها) فهي محمولة على أنهم لا يذكرونها جهراً، وإنما يذكرونها سراً- أي: أحياناً – وليس المراد أنهم لا يذكرون شيئاً أبداً.

فكما أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يسر بدعاء الثناء بعد افتتاحه بالتكبير، وبالتوجه، وبالتعوذ، فكذلك كان صلى الله عليه وآله وسلم يسر بالبسملة ، فإن دعاء الثناء والتوجه والتعوذ ثابت عنه صلى الله عليه وآله وسلم في الصلوات ، فلا يجوز أن يفهم من قول أنس

رضي الله عنه الوارد في مسلم : لا يذكرون {بسم الله الرحمن الرحيم } ولا غيرها على النفي المطلق؛ بل على نفي الجهر بها.
فقد روى البخاري ، عن قتادة قال: سألت أنس بن مالك كيف كانت قراءة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ؟ فقال: كانت مداً، ثم قرأ أنس :{ بسم الله الرحمن الرحيم } يمد بسم الله –أي: اللام التي قبل هاء الجلالة – ويمد الرحمن- أي: الميم التي قبل النون- ويمد صلى الله عليه وآله وسلم الرحيم- أي: الحاء – فهذه الرواية عن أنس تدل على أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يجهر بالبسملة .
وروايته عدم ذكر البسملة محمولة على الإسرار بها، كما كان صلى الله عليه وآله وسلم يسر بدعاء التوجه بعد التكبير.
ففي (الصحيحين) والرواية لمسلم ، عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا قام إلى الصلاة كبر ثم قال : [وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وأنا من المسلمين]) .
وفي رواية لمسلم : [وأنا أول المسلمين] الحديث .
وبه أخذ الإمام الشافعي رضي الله عنه .
وروى أبو داود والترمذي ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا افتتح الصلاة قال : [سبحانك اللهم وبحمدك ، وتبارك اسمك ، وتعالى جدك ،ولا إله غيرك] .
وبهذا أخذ الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه .
سنية افتتاح مهام الأمور ب { بسم الله الرحمن الرحيم } :
جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : [كل أمر ذي بال[١٣] لا يبدأ فيه ب{بسم

---

[١٣] أي: ذي شأن وشرف، قال العلامة المناوي: وفي رواية :[كل كلام] والأمر أعم من الكلام، لأنه قد يكون – أي: الأمر – فعلاً فلذا آثر روايته .اه.
والمعنى كل أمر قولاً كان أو فعلاً، له شأن يهتم به شرعاً .
فالمراد بالبال هنا الحال ، وقد يطلق البال في اللغة على القلب .

الله الرحمن الرحيم} أقطع[١٤] ...] وقد حسنه النووي والسيوطي بعده وغيرهما.
أما افتتاح تلاوة القرآن الكريم ب { بسم الله الرحمن الرحيم } :
فقد روى البخاري وغيره ، عن أم سلمة رضي الله عنها أنها سئلت عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالت : كان يقطع قراءته آية آية : { بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين . . . } الحديث .
ومن ذلك افتتاح الكتب والرسائل فقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يفتتح كتبه ورسائله ب { بسم الله الرحمن الرحيم } .
فهذا كتابه صلى الله عليه وآله وسلم إلى هرقل، وفيه كما في (صحيح)البخاري :[بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى ، وأما بعد : فإني أدعوك بدعاية الإسلام].
وفي رواية لمسلم :[بداعية الإسلام- أي: بالكلمة الداعية للإسلام ، وهي شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله – أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين- أي: إثم أتباعك- { قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون }].
وروى الخطيب البغدادي ، عن أبي جعفر محمد بن علي رضي الله عنهم ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال:[بسم الله الرحمن الرحيم مفتاح كل كتاب].
وكان صلى الله عليه وآله وسلم يفتتح كلامه ويختتمه ببسم الله:

---

[١٤] معنى أقطع : ممحوق من كل خير وبركة .
قال الإمام النووي بعد سياقه هذا الحديث وما قبله وهو حديث ابن ماجه : [كل امرىء ذي بال لا يبدأ بالحمد لله أقطع] .
قال : روينا هذه الألفاظ في الأربعين للرهاوي وهو حديث حسن ، وقد روي موصولاً ومرسلاً ، ورواية الموصول جيدة الإسناد ، وإذا روي الحديث موصولاً ومرسلاً فالحكم للاتصال عند الجمهور . . . اه فقد حسن النووي حديث البسملة .

كما جاء في حديث هند بن أبي هالة المذكور في شمائل الترمذي وغيرها، وفيه: كان صلى الله عليه وآله وسلم يفتتح كلامه ويختمه باسم الله تعالى... الحديث بطوله.

وقد ورد استحباب التسمية في عدة أمور ، ولكن تختلف المقاصد فيها حسب حال الأمر الذي بدأه بالبسملة .

فمن الأمور ذات البال التي تسن فيها التسمية :

عند الوضوء، وعند دخول المسجد، وعند الخروج من المنزل والدخول فيه، وعند ركوب الدابة، وإغلاق الباب وغير ذلك ، وعند تناول الطعام والشراب، ولباس الثياب، والمقصود من ذلك تعظيم الله تعالى والتبرك باسمه تعالى ، وليحصل الخير والنفع بذلك على وجه التمام والدوام، والاعتراف له سبحانه بالفضل والنعمة.

وقد يقصد به التعوذ – أي: وقد يقصد بالبدء بالبسملة التعوذ- من شر الإنس والجن، والتحصن ، وإبعاد الشياطين ، والتحرز من شرورهم وفسادهم.

وقد يراد به الحفظ للشيء، يفهم ذلك من المواضع التي يطلب فيها البسملة كما سيبين لك من الأحاديث النبوية الآتية :

وأما التسمية على الذبيحة فهي فرض لقوله تعالى :{ فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين}.

وقال تعالى:{ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق } الآية.

وتفصيل أقوال أئمة الفقه في ذلك تجده في كتب الفقه مفصلاً.

أما البسملة عند الوضوء : فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :{ لا صلاة لمن لا وضوء له، ولا وضوء لمن لم يذكر اسم الله تعالى عليه] [١٥]وقد جاء في رواية الترمذي :[لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه].

---

[١٥] قال الحافظ المنذري : رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه ، والطبراني، والحاكم وصححه، ثم قال : وقد ذهب الحسن- البصري- وإسحاق بن راهويه وأهل الظاهر إلى وجوب التسمية في الوضوء، حتى إنه إذا تعمد تركها أعاد الوضوء ، قال: وهو رواية عن الإمام أحمد . إلخ.

وأما التسمية عند دخول المسجد : روى الإمام أحمد وابن ماجه وغيرهما، عن السيدة الكبرى السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام والرضوان قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا دخل المسجد يقول:[بسم الله، والسلام على رسول الله، اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك].

وإذا خرج من المسجد قال:[بسم الله، والسلام على رسول الله، اللهم اغفر لي ذنوبي ، وافتح لي أبواب فضلك].

ثم يأتي داخل المسجد بالتعوذ : روى أبو داود ، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا دخل المسجد قال : [أعوذ بالله العظيم ، وبوجهه الكريم ، وسلطانه القديم ، من الشيطان الرجيم] وقال : [من قال ذلك : حفظ منه – أي : من الشيطان – سائر اليوم] .

التسمية عند الخروج من المنزل : عن أم سلمة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا خرج من بيته قال : [بسم الله ، توكلت على الله ، اللهم إنا نعوذ بك من أن نزل أو نضل ، أو نظلم أو نظلم ، أو نجهل أو يجهل علينا] [١٦] .

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :[من قال إذا خرج من بيته: بسم الله، توكلت على الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، يقال هل- أي: يقول له الملك-: حسبك هديت وكفيت ووقيت، وتنحى عنه الشيطان][١٧] .

التسمية عند دخول المنزل: روى أبو داود ، عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :[إذا ولج – أي: دخل- الرجل إلى بيته فليقل: اللهم إني أسألك خير المولج وخير المخرج ، بسم الله ولجنا، وبسم الله خرجنا، وعلى الله ربنا توكلنا ، ثم ليسلم – الرجل- على أهله].

التسمية إذا دخل السوق : روى الطبراني والحاكم وغيرهما عن بريدة رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

---

[١٦] رواه أصحاب (السنن) كما في (جامع الأصول) .

[١٧] رواه أبو داود والترمذي.

إذا دخل السوق قال:[بسم الله ، اللهم إني أسألك من خير هذه السوق وخير ما فيها ، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها ، اللهم إني أعوذ بك أن أصيب فيها – أي: أن أعمل فيها – يميناً فاجرة أو صفقة خاسرة].

التسمية على الطعام والشراب: عن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يأكل طعامه في ستة من أصحابه ، فجاء أعرابي فأكله بلقمتين.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :[أما إنه لو سمى – أي: لو أن الأعرابي قال: بسم الله – لكفتكم][١٨].

وفي (المسند) أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا قرب إليه طعامه قال:[بسم الله]، فإذا فرغ قال:[اللهم إنك أطعمت وسقيت، وأغنيت وأقنيت ، وهديت واجتبيت ، فلك الحمد على ما أعطيت].

وعن جابر رضي الله عنه ، أنه سمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول:[إذا دخل الرجل بيته فذكر الله تعالى عند دخوله ، وعند طعامه، قال الشيطان: - أي: لأتباعه الشياطين – لا مبيت لكم ولا عشاء ، وإذا دخل فلم يذكر الله تعالى عند دخوله قال الشيطان : أدركتم المبيت ، وإذا لم يذكر الله تعالى عند طعامه قال الشيطان: أدركتم المبيت والعشاء].

التسمية عند الركوب : روى الإمام أحمد في (مسنده) عن علي بن ربيعة قال : رأيت أمير المؤمنين علياً رضي الله عنه أتي بدابة فلما وضع رجله في الركاب قال : بسم الله فلما استوى عليها قال : الحمد لله ، و { سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين. وإنا إلى ربنا لمنقلبون } ، ثم حمد الله تعالى ثلاثاً ، وكبر ثلاثاً ، ثم قال : سبحانك لا إله إلا أنت ، قد ظلمت نفسي فاغفر لي – ثم ضحك .

فقلت له : مم ضحكت يا أمير المؤمنين ؟

---

[١٨] قال المنذري : رواه أبو داود والترمذي وقال: حسن صحيح ، وابن ماجه، وابن حبان في (صحيحه)، وزاد : قال صلى الله عليه وسلم :[فإذا أكل أحدكم طعامه فليذكر اسم الله عليه ، فإن نسي في أوله ؛ فليقل: بسم الله أوله وآخره].
وقد روى أبو داود وابن ماجه هذه الزيادة في حديث مستقل.

فقال علي رضي الله عنه : رأيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فعل مثل ما فعلت ثم ضحك ، فقلت : مم ضحكت يا رسول الله ؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم :[يعجب [١٩] الرب تبارك وتعالى من عبده إذا قال : رب اغفر لي ، ويقول – سبحانه – : علم عبدي أنه لا يغفر الذنوب غيري] [٢٠] .

التسمية عند إرادة النوم : عن أبي الأزهر رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا أخذ مضجعه من الليل قال : [بسم الله وضعت جنبي] ، وفي رواية : [وبك أرفعه ، اللهم اغفر لي ذنبي ، واخسأ شيطاني ، وفك رهاني ، وثقل ميزاني ، واجعلني في الندي الأعلى] [٢١] .

وعن البراء رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا أخذ مضجعه من الليل وضع يده تحت خده ، ثم يقول : [باسمك اللهم أحيا وباسمك اللهم أموت] .

وإذا استيقظ قال : [الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور] [٢٢] .

واليد الذي يضعها تحت خده هي اليمنى ، كما جاء في حديث البراء رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا أخذ مضجعه جعل يده اليمنى تحت خده الأيمن وقال : [رب قني عذابك يوم تبعث عبادك] [٢٣] .

التسمية إذا أراد الرجل أن يأتي أهله : عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : [لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال : بسم الله ، اللهم جنبنا الشيطان ،

---

[١٩] ومعنى يعجب الرب تبارك وتعالى : يعظم شأن عبده عنده إذا قال : رب اغفر لي ، وهو يعلم انه لا يغفر الذنوب إلا الله تعالى .

[٢٠] قال الحافظ ابن كثير : وهكذا رواه أبو داود ، والترمذي ، والنسائي من حديث أبي الأحوص . اه .

[٢١] رواه أبو داود والحاكم .

[٢٢] عزاه في(الجامع الصغير) إلى (الصحيحين) و (المسند) .

[٢٣] رواه الترمذي .

وجنب الشيطان ما رزقتنا ، فإنه إن قضي بينهما ولد من ذلك لم يضره الشيطان أبداً] [٢٤] .
أي : لأنه سمى عليه ، أي : ذكر اسم الله تعالى عليه ، وكل ذلك قبل التكشف – أي : حال الستر - .
فحافظ أيها المسلم على ذلك ، فإنه حرز لك ، ولزوجتك ، ولولدك من الشيطان .
التسمية عند إغلاق الأبواب وإطفاء المصباح ونحو ذلك : عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : [إذا استجنح الليل] ، وفي رواية : [إذا كان جنح [٢٥] الليل فكفوا صبيانكم ، فإن الشياطين تنتشر حينئذ ، فإذا ذهب ساعة من الليل فخلوهم [٢٦] ، وأغلقوا الأبواب واذكروا اسم الله، فإن الشيطان لا يفتح باباً مغلقاً ،- أي: إذا ذكر اسم الله عليه- وأوكئوا قرابكم واذكروا اسم الله، وخمروا آنيتكم واذكروا اسم الله- ولو أن تعرضوا عليه شيئاً ، وأطفئوا مصابيحكم][٢٧] .
فاعتبر أيها العاقل في هذا الحديث الشريف الجامع لأنواع من الإرشادات ، والآداب الجامعة لكل خير، وكلها مرتبطة ببسم الله، في كل فعل وحركة وسكون، بحيث تجعلك في سلامة من آفات الدارين ، وفساد أمر الدين والدنيا، فقد أمر صلى الله عليه وآله وسلم بإغلاق الأبواب مع ذكر اسم الله تعالى ، وهذا يشمل كل باب يغلق، سواء باب المنزل، أو باب صندوق الأمتعة، فإن الأمتعة من الألبسة ونحوها هي معرضة لتسلط الشياطين عليها، كما هي معرضة لدخول الهوام فيها ، فسم الله تعالى إذا وضعتها إن لم تكن في موضع له باب ، وإن وضعتها في موضع له باب فسم الله تعالى عند

[٢٤] رواه الشيخان والإمام أحمد .
[٢٥] أي : اقبل الليل بظلامه ، فإن الشياطين والأرواح الخبيثة تنتشر ، فتفسد وتضر ، فربما تؤذ الأولاد في تلك الساعة .
[٢٦] بحاء مهملة مضمومة ، وفي رواية : بخاء معجمة مفتوحة أي : من التخلية، والمعنى : فلا تمنعوهم من الخروج والدخول .
[٢٧] رواه الشيخان والإمام أحمد والبزار وغيرهم، ومعنى:[خمروا آنيتكم] أي: اجعلوا عليها غطاء بأي شيء تيسر، فإن البسملة تجعله قوياً منيعاً .

إغلاق الباب ، فإن اسم الله تعالى هو السور العظيم، والحجاب المنيع؛ مانع لتدخل الشياطين .
روى أبو الشيخ في (العظمة) عن صفوان بن سليم قال: الجن يستمتعون بمتاع الإنس وثيابهم، فمن أخذ منكم ثوباً أو وضعه فليقل بسم الله فإن اسم الله تعالى مانع.
وأمر صلى الله عليه وآله وسلم بالقرب أن توكأ- أي: تسد أفواهها بما يسد به فم القربة- مع اسم الله تعالى حتى لا تدخل فيه الهوام، ولا تفسده الشياطين.
وأمر بتخمير الأواني – أي: بتغطيتها ولو بغطاء خفيف- فينبغي تغطية أواني الطعام والشراب مع ذكر اسم الله تعالى ، فإن ذكر اسم الله تعالى هو الذي يحفظها لا الغطاء، فسم الله تعالى لحفظها من الهوام الظاهرة ، والشياطين الخفية.
وإذا وضعت أواني الطعام والشراب في محفظة لها كالمبردات في زماننا فسم الله تعالى؛ وأغلق الباب يكفيك عن تغطيتها.
وأمر بإطفاء المصابيح عند النوم، وجاء في تعليل الأمر بإطفاء المصابيح التي كانت تضيء بسبب الفتيلة المستمدة من الزيت ، فأمر صلى الله عليه وآله وسلم بإطفاء المصباح مخافة أن تأتي الفويسقة بتحريك من الشياطين فتجر الفتيلة فتحرق البيت.
وقد نص العلماء على أن الأمر بإطفاء تلك المصابيح هو للإرشاد، مخافة الأذى ووقوع الضرر، ولكن إذا لم يكن هناك ضرر أو مخافة الأذى منها فلا مانع من ترك إطفاء المصباح عند النوم حسب الحاجة، وكل ذلك من باب شفقته صلى الله عليه وآله وسلم على أمته، فإنه صلى الله عليه وآله وسلم أشفق على أمته من الوالدة على ولدها، ولم يدع صلى الله عليه وآله وسلم شفقة دينية أو دنيوية إلا وقد أرشد أمته إليها؛ ودلهم عليها- صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم تسليماًَ.
وفي هذا الحديث الشريف ما يدلك على أن تعاطي الأسباب الظاهرة هو أمر مشروع لا بد منه، فأمر صلى الله عليه وآله وسلم بإغلاق الأبواب، وإيكاء السقاء، وتغطية الأواني – وغير ذلك كما تقدم

ولكن بين أن ذلك وحده لا يكفي ، بل لا بد من ذكر اسم الله تعالى ، فإن الأسباب ليس لها تأثير في الحفظ والوقاية- من ذاتها- وإنما المؤثر بالذات والفعال هو الله تعالى وحده ، فإن الأسباب هو الذي نصيها،- ولكن لم يجعل لها تأثيراً من ذاتها- فإن شاء أعملها وجعل لها التأثير ، وإن شاء أهملها ، فالأسباب كآلة عمل إن أمدتها قوة كهرباء أو نحوها تحركت؛ وإلا فهي عاطلة عن الحركة .
والأسباب كالأجسام ، فإن جعل الله تعالى فيها روحاً عملت وتحركت، وإلا فلا حراك لها.
فليس لسبب تأثير ذاتي ، فقد يحرق سبحانه بالنار ، وقد يجعلها برداً وسلاماً – وهي نار- كما جعلها على سيدنا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام.
وصلابة الحديد ليست من ذاته بل بقوة من الله تعالى و وقد يجعله ليناً وهو حديد، قال تعالى في سيدنا داود عليه السلام:{ وألنا له الحديد}.
والدواء سبب ولكن الذي يشفي به هو الله تعالى.
والماء سبب ولكن الذي يروي به هو الله تعالى وهكذا...
فلا بد من الأسباب ، ولكن ليس التأثير من الأسباب ، بل من المسبب سبحانه وتعالى لأنه هو الذي خلقها، وقد أمر الله تعالى بالأخذ بالأسباب ، وقد تعاطى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الأسباب ، قال تعالى:{ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم}.
فانظر في قوله تعالى :{ ترهبون به } أي: بسبب ما أعددتم ، ولكن الله تعالى هو الذي يجعل بذلك الرهبة والرعب.
قال تعالى:{ سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان }الآية.
وضرب الأعناق لا بد له من سيف ، والسيف لا بد له من إعداد وقوة يد تضرب به.
ولما نزل قوله تعالى:{ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل} الآية، صعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم المنبر فقرأ قول

الله تعالى :{ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة} وقال:[ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي] كما ورد ذلك في مسلم و (مسند) أحمد وغيرهما.

فتفكر أيها العاقل في هذا الحديث النبوي الذي فيه معجزة كبرى من معجزات إخباراته المغيبة صلى الله عليه وآله وسلم ، وذلك أن القوة في كل عصر وفي كل الحروب هي الرمي ؛ وإن كانت الآلات والمخترعات التي يرمى بها تختلف حسب اختراع أهل العصر ، فكانت قوة الرمي بالسهام ، والرمي بالمنجنيق ، ثم بعد ذلك الرمي بالرصاص وأشباهه ، والقنابل وأمثالها ، ثم الصواريخ التي يرمى بها من أبعاد ومسافات ، وجميع ذلك داخل تحت قوله صلى الله عليه وآله وسلم : [ألا إن القوة الرمي] .

فصلى الله العظيم عليك يا سيدي يا رسول الله ، ما تركت أمراً يكون إلى قيام الساعة إلا أخبرت عنه ، وعرفتنا به ، وهذه كلها معجزات محققة الوقوع ، شاهدة بصدق نبوته صلى الله عليه وآله وسلم ورسالته إلى جميع العالمين إلى يوم الدين .

هذا وقد ذكرت لك جملة موجزة من المواضع التي يتأكد عليك فيها الإتيان بالبسملة ، وهناك عدة مواضع عديدة هي معلومة، وربما تمر على بعضها في هذا الكتاب.

ومن هذه الأحاديث التي تقدمت في البسملة تعلم فضلها وخصائصها، وقوة آثارها في البركة، واستفتاح أبواب الخير واستنزال رحمة الله تعالى، وافتتاح أبواب الفضل الإلهي، وتعلم ما فيها من قوة التعوذ والتحصن من الشياطين ، وما فيها من قوة الحفظ من المضار والهوام ، وكل ما يتأتى منه الفساد والشرور، وتعلم ما فيها من قوة التجاء العبد إلى الله تعالى: مولاه ونصيره وحفيظه ووكيله، وما فيها من اعتراف العبد بفقره إلى الله تعالى : في جميع أموره، وتعلم أسماء الله تعالى، وقوة تأثيرها ، وسريان آثارها في العوالم إلى غير ذلك ، وبسم الله أولاً وآخراً ، والحمد لله على ذلك.

التسمية في كل صباح ومساء ثلاثاً: روى أبو داود ، وابن حبان وغيرهما ، عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :[من قال حين يمسي : بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم- ثلاث مرات؛ لم يصبه فجأة بلاء حتى يصبح، ومن قالها حين يصبح ثلاث مرات ؛ لم يصبه فجأة بلاء حتى يمسي].

التسمية لتسكين الآلام والأوجاع: روى الترمذي، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يعلمهم من الحمى والأوجاع كلها أن يقول: [بسم الله الكبير، أعوذ بالله العظيم ، من كل عرق نعار ومن شر حر النار]والعرق النعار هو الذي ازدادت حركته أو حرارته.

وعن عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه أنه اشتكى إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وجعاً يجده في جسده منذ أسلم.

فقال له صلى الله عليه وآله وسلم :[ضع يدك على الذي تألم من جسدك وقل: بسم الله- ثلاث مرات، وقل سبع مرات : أعوذ بعزة الله وقدرته ، من شر ما أجد – أي: وجعه- وأحاذر] – أي: أخاف من عاقبة هذا الوجع -.

قال عثمان : ففعلت ذلك مراراً ؛ فأذهب الله ما كان بي ، فلم أزل آمر أهلي وغيرهم بذلك.

وفي رواية:[أعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر] رواه مسلم، وأبو داود والترمذي وغيرهم.

وروى مسلم ، والترمذي ، عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: أتى جبريل عليه السلام النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال جبريل عليه السلام :[يا محمد اشتكيت] أي: من وجع-؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم :[نعم].

فقال جبريل عليه السلام :[بسم الله أرقيك، من كل داء يؤذيك، ومن شر كل نفس أو عين حاسد، الله يشفيك، بسم الله أرقيك].

التحذير الشديد من إلقاء اسم الله تعالى ، أو آية من كتابه العزيز ، أو حديث رسوله صلى الله عليه وسلم على الأرض، أو عدم تعظيمها:

أخرج أبو داود في (مراسيله) عن عمر بن عبد العزيز ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم مر على كتاب في الأرض فقال لفتى معه:[ما في هذا]؟

فقال الفتى: فيه بسم الله.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم :[لعن الله تعالى من فعل هذا، لا تضعوا بسم الله إلا في موضعه].

فعليك يا أخي بتعظيم أسماء الله تعالى وآياته ، وتعظيم أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأسمائه، فإن تعظيم ذلك هو من تقوى القلوب ، ألم تسمع قول الله تعالى :{ ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب } والشعائر جمع شعيرة.

قال العلامة القرطبي رحمه الله تعالى : وهي – أي: شعائر الله تعالى- كل شيء لله تعالى فيه أمر أشعر به وأعلم ، ومنه شعار القوم في الحرب- أي: علامتهم التي يتعارفون بها- فشعائر الله تعالى هي أعلام دينه لا سيما المناسك .اه.

قال عبد الله: فشعائر الله تعالى هي: معالم دينه، ومواضع عباداته، فيدخل فيها الكعبة المعظمة ، وجميع مواضع مناسك الحج: كعرفة ، والمشعر الحرام، والمزدلفة، وجميع بيوت الله تعالى وهي: المساجد، ويشمل ذلك أيضاً الكتب الشرعية والدينية، وحملة الشريعة، وعلماء الدين، وحملة القرآن الكريم، فقد استدل الإمام النووي رحمه الله تعالى بقوله تعالى:{ ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب } استدل بها على وجوب إكرام أهل القرآن الكريم، وتعظيم علماء الدين، لأنهم حملة دين الله تعالى.

ونقل الإمام النووي عن الإمامين الكبيرين أبي حنيفة والشافعي رضي الله عنهما أنهما قالا: إن لم يكن العلماء أولياء الله تعالى فليس لله تعالى ولي.

كما نقل عن الحافظ ابن عساكر رحمه الله تعالى أنه قال : اعلم يا أخي وفقنا الله تعالى وإياك لمرضاته ، وجعلنا ممن يخشاه ويتقيه حق تقاته، أن لحوم العلماء مسمومة ، وعادة الله تعالى في هتك أستار منتقصيهم معلومة ، وأن من أطلق لسانه في العلماء بالثلب- الطعن والاحتقار- ابتلاه الله تعالى قبل موته – جسماً – بموت القلب { فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم}.اه.

فإذا كان تعظيم شعائر الله تعالى من تقوى القلوب ، فإن تعظيم أسمائه سبحانه وآياته ، وأحاديث رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ؛ ذلك من أعظم تقوى القلوب، ومن المعلوم أن تقوى القلوب إذا تحقق بها المسلم حملته على تقوى القوالب – أي: الجسم وجوارحه- كما قال صلى الله عليه وآله وسلم :[التقوى ههنا، التقوى ههنا، التقوى ههنا] ويشير إلى صدره الشريف صلى الله عليه وآله وسلم .

فافهم واعقل ، ولا تجهل، ولا تغفل عن ذلك ، فالتقوى ليست مجرد كلام ودعوى ، بل هي ما صدر عن قلب فيه تعظيم ما أمر الله تعالى بتعظيمه، وتكريم ما أمر الله تعالى بتكريمه.

فالله تعالى يكرم ويعظم من عظم ذلك، ويهين من استهان بذلك ويعذبه:

روى البيهقي في (الشعب) بإسناده عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه وكرم وجهه أنه قال: تنوق[٢٨] رجل في { بسم الله الرحمن الرحيم} فغفر الله تعالى له.

ثم قال البيهقي : هذا موقوف ، وقد أورده الحافظ السيوطي مرفوعاً ، وعلى كل حال فالموقوف في مثل هذا له حكم المرفوع، لأنه لا مجال للرأي في ذلك .

فهذا رجل كتب { بسم الله الرحمن الرحيم} فجودها وحسنها وتأنق بها تكريماً وتعظيماً فغفر الله تعالى له .

---

[٢٨] الشيء الأنيق: هو الشيء الحسن الجميل ، وتأنق الرجل في الأمر أي: عمله بنيقة مثل تنوق- أي: حسنه وجمله اه ملخصاً من (النهاية) لابن الأثير مادة تنوق، وكما في (مختار الصحاح) مادة أنق.

وأخرج أبو نعيم في (تاريخ أصبهان) وابن أشته في (المصاحف) بسند ضعيف [٢٩] عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :[من كتب { بسم الله الرحمن الرحيم } مجودة تعظيماً لله تعالى غفر الله له].

وروى البيهقي في (الشعب) عن أبي عبد الرحمن السلمي في ذكر منصور بن عمار أنه أوتي الحكمة ، وأن سبب ذلك أنه وجد رقعة صغيرة في الطريق مكتوباً عليها [بسم الله الرحمن الرحيم } فأخذها فلم يجد لها موضعاً – محترماً- فابتلعها ، فأري في المنام قائلاً يقول له : قد فتح الله عليك باب الحكمة باحترامك لتلك الرقعة – فكان بعد ذلك يتكلم بالحكمة .اه.

وقد ذكر الإمام القشيري رحمه الله تعالى عن بشر الحافي رحمه الله تعالى أنه أصاب في الطريق ورقة مكتوباً فيها اسم الله عز وجل ، وقد وطئتها الأقدام ، فأخذها، واشترى بدراهم كانت معه غالية- أي: طيباً جيداً- فطيب بها الورقة ، ثم جعلها في شق جدار عال حصين ، فرأى في تلك الليلة وهو نائم كأن قائلاً يقول له: يا بشر طيبت اسمي لأطيبنك في الدنيا والآخرة.

ويروى أن هذه الرؤية كانت سبب إنابته بكليته إلى مولاه سبحانه .

وقد جاء مثل ذلك في (وفيات الأعيان) وغيره من كتب التاريخ والتراجم، وقد أوردها الحافظ البيهقي في (شعب الإيمان) بإسناده ، وأنه – أي: بشر الحافي – وجد قرطاساً فيه {بسم الله الرحمن الرحيم} فعظم ذلك عليه ، ورفع طرفه إلى السماء ، وقال: سيدي اسمك ها هنا ملقى ، فرفعه من الأرض وأزال عنه التراب، وأتى عطاراً فاشترى بدرهم غالية – لم يكن معه سواه- ولطخ به القرطاس ، ثم أدخله في شق حائط مرتفع ، وانصرف إلى زجاج كان يجالسه.

فقال له الزجاج: والله يا أخي لقد رأيت في هذه الليلة رؤيا ما رأيت أحسن منها ، ولست أقولها حتى تحدثني ما فعلت في هذه الأيام فيما بينك وبين الله تعالى .

---

[٢٩] ومن المعلوم عند المحدثين أن الضعيف يعمل به في الفضائل.

فقال بشر : ما فعلت شيئاً أعلمه ، غير أني فعلت كذا- وذكر له ذلك.
فقال الزجاج : رأيت كأن قائلاً يقول لي في النوم :قل لبشر: رفع اسماً لنا من الأرض إجلالاً إذ يداس ، لننوهن – أي: لنرفعن- باسمك في الدنيا والآخرة .اه.
قال عبد الله : والظاهر أن بشراً رأى تلك الرؤيا في المنام ، وأيضاً رئيت له، لأنها بشرى من الله تعالى ، وقد بين صلى الله عليه وآله وسلم في قوله تعالى :{ لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة } الآية، أن البشرى من الله تعالى في الحياة الدنيا هي الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له.
فإياك يا أخي المسلم أن تعرض أسماء الله تعالى ، أو أسماء النبي صلى الله عليه وآله وسلم للإهانة ، أو الوضع على الأرض، فلا يجوز كتابة ذلك على أوراق تغلف بها الأمتعة ، أو تصر فيها الأمتعة، ولا على السلة ولا الكيس المصنوعة لحمل الأمتعة ووضعها في داخلها ، كأن تكتب عليه اسم عبد الرحمن ، أو عبد القادر، أو عبد الكريم، ونحو ذلك ، أو اسم محمد أو أحمد ونحوهما – تبتغي من ذلك الدعاية لترويج بضاعتك ، لتجر من وراء ذلك كثرة المال، وأنت تعلم وترى أين مصير تلك الأوراق أو السلة، فإن ذلك لا يجوز لوجوه:
أولاً- إن غلاف الصر أو الأوراق التي تصر فيها الأمتعة، وإن كيس الأمتعة هي في ذاتها ليس مصنوعة للاحترام والتكريم ، بل هي مصنوعة لحمل الأمتعة المختلفة، وتوضع هنا وهناك كما هو معروف ، فكيف تكتب عليها أسماء معظمة! على أوراق وسلة مصنوعة للامتهان.
ثانياً- أنت تعلم أنها حين تفرغ من الأمتعة أين توضع، فإنها غالباً توضع على الأرض ، أو في أماكن غير محترمة ، ومعرضة للامتهان ، وأن تداس بالأقدام.
ثالثاً- أنت تعلم أين مصير تلك الأوراق أو السلة و وأنها سوف توضع مع الأوساخ والكناسة ، وما أكثر ذلك بين الأوساخ .
فإن قلت: إن الإثم على الذي يضعها في تلك المواضع.

فالجواب: أنت آثم أيضاً ، لأنك المتسبب في ذلك .

وإن زعمت أنك لا تعرف حكم الشرع في ذلك.

فالجواب: أن جهلك بحكم الشرع في ذلك ليس عذراً لك عند الله تعالى، وقد نص العلماء على أن الجهل بأحكام الشريعة في أمور يتعاطاها الإنسان وهو في بلاد الإسلام ليس بعذر له عند الله تعالى، لأنه يجب عليه أن يسأل أهل العلم بذلك .

فإن كنت لا تدري فتلك مصيبة

وإن كنت تدري فالمصيبة أعظم

وحسبنا الله ونعم الوكيل.

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة الكتاب:

افتتح بها كتابة الكتاب- أي: المصحف- بأمره صلى الله عليه وآله وسلم ، لأنها أول ما نزل بعد خمس من أول سورة { اقرأ} كما في حديث عائشة رضي الله عنها، ثم أول { المدثر} كما في حديث جابر رضي الله عنه ، ثم الفاتحة الثالثة أو الرابعة نزولاً في مكة، ثم في المدينة.

وتسمى سورة الشفاء، والرقية ، كما في حديث أبي سعيد ، **وأم الكتاب، وأم القرآن، و** { الحمد لله رب العالمين}.

ووجه تسميتها بأم القرآن لأن الأم هي أصل الشيء ومرجعه، ومنه أم القرى مكة.

وتسمى سورة الصلاة لحديث:[قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ...] رواه مسلم وسيأتي تمامه تقريباً.

وتسمى السبع المثاني:{ ولقد ءاتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم}.

والكلام على وجه تسميتها بالسبع المثاني سيأتي مفصلاً آخر الكتاب إن شاء الله تعالى ، في مناسبة الكلام على فضائل سورة الفاتحة.

وتسمى سورة المسألة والدعاء لحديث:[أبشر- أي يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم – بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك ، فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة ، لم تقرأ بحرف منهما إلا أوتيته][٣٠] ففيهما الدعاء ، وتعليم الدعاء، والمعلم هو الله تعالى – وسيأتي الحديث بنصه إن شاء الله تعالى.

وتسمى سورة الحمد لأن فيها : { الحمد لله رب العالمين } .

لما ورد في الحديث الذي رواه مسلم وغيره : [قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ، وفي رواية : [قسمين] – فإذا قال : { الحمد لله رب العالمين } .

قال الله تعالى : حمدني عبدي .

فإذا قال : { الرحمن الرحيم } .

قال الله تعالى : أثنى علي عبدي .

فإذا قال : { مالك يوم الدين } .

قال الله تعالى : مجدني عبدي .

فإذا قال : { نعبد وإياك نستعين } .

قال الله تعالى : هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل .

فإذا قال : { اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين } .

قال الله تعالى : هذا لعبدي ولعبدي ما سأل .

{ الحمد لله رب العالمين }

الكلام على هذه الآية الكريمة له وجوه متعددة :

---

[٣٠] رواه مسلم والترمذي.

أولاً : افتتحها الله تعالى بالحمد ، والكلام على ذلك فيه عدة من الحكم : **معنى الحمد ، وشمول الحمد هنا ، وأنه مستحق لله تعالى بالذات ؛ ووجه استحقاقه ذلك لأنه هو الله تعالى ، ولأنه رب العالمين ، وبيان فضل مقام الحمد ، وبيان فضل مقام أحمد الحامدين صلى الله عليه وآله وسلم .**

معنى الحمد هو : الثناء على المحمود بذكر محامده وكمالاته القائمة بذاته ، أو محامده الفعلية الصادرة عنه على وجه الإجلال والتعظيم ، والمراد بالحمد هنا جنسه ، فيشمل حمد الله تعالى لنفسه ، وحمد كل حامد من مخلوقاته ، فإن ذلك كله هو حق الله تعالى ، فيشمل محامده الأزلية الأبدية ، فإنه سبحانه يحمد نفسه ويثني على نفسه ، ويمدح نفسه ، وثناؤه على نفسه هو كما أثنى على نفسه .

وحق له أن يحمد نفسه ، لأن كمالاته ذاتية له ؛ ليست من غيره ، وهي غير متناهية ، وهي مطلقة غير مقيدة ، ولذلك حق له أن يحمد نفسه ، وأن يمدح نفسه سبحانه وتعالى ، كما جاء في (الصحيحين) و (المسند) وغيره ، عن ابن مسعود رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : [لا أحد أغير من الله ؛ ولذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ،ولا أحد أحب إليه المدح من الله ولذلك مدح نفسه ، ولا أحد أحب إليه العذر من الله؛ من أجل ذلك أنزل الكتاب وأرسل الرسل].

والمعنى: أن الله تعالى أقام الحجة على العباد بإنزال الكتب الإلهية، وإرسال الرسل، فلا عذر لمن يخالف أوامر الله تعالى بعد ذلك، لأن عذره غير صحيح.

قال تعالى:{ رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل }.

أما غيره سبحانه، فلا يجوز أن يحمد نفسه ، ولا أن يثني على نفسه بما عنده من الكمالات ، لأنها ليست من نفسه ، بل يجب عليه أن يحدث بنعمة ربه عليه بتلك الكمالات ، وأن يحمد الله تعالى الذي تفضل عليه بذلك .

وإنما حق لله تعالى الحمد كله، وأوجب ذلك على عباده ، لأنه هو الله تعالى ، المتصف بكل كمال، المنزه عن كل نقصان، وإلى هذا يشير قوله تعالى :{ الحمد لله} أي: لأنه هو الله تعالى، فهو يحمد لذاته، ويحمد لنواله وإفضاله، وإكرامه ونعمه، وإليه الإشارة بقوله تعالى :{ رب العالمين} والمعنى: أنه يحمد لأنه رب العالمين ، أي: خالقهم ومربيهم، والمنعم عليهم، والمتفضل عليهم بأنواع النعم والفضل، والنعم التي لا تحصى؛ الظاهرة والباطنة، والنفسية والآفاقية، والخاصة والعامة، والماضية والآتية.

قال تعالى:{ وإن تعدوا نعمت الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار } أي: كثير الظلم لنفسه ، بارتكاب الذنوب والخطايا، وكفره نعم الله تعالى عليه ؛ إلا المؤمنين الذين يعملون الصالحات، ويشكرون الله تعالى على نعمه، ويحمدونه على فضله وكرمه، وهذا نظير قوله تعالى :{ والعصر . إن الإنسان لفي خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر }.

هذا وإن أعظم نعم الله تعالى نعمة القرآن ، ونزوله على سيد ولد عدنان صلى الله عليه وآله وسلم ، قال تعالى:{ الرحمن. علم القرآن . خلق الإنسان . علمه البيان }.

فالله تعالى الرحمن، علم القرآن أولاً لسيد الأكوان صلى الله عليه وآله وسلم ، وأمره أن يعلمه لعباده، فلذلك حمد نفسه سبحانه على إنزاله الكتاب، فقال:{ الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب } الآية، وجيء هنا بكلمة الكتاب ، فإنه من الكتب وهو الجمع، باعتبار أنه الكتاب الجامع لجميع ما فيه مصالح العباد وسعادتهم، ولذلك افتتح سبحانه فاتحة كتابه ب{ الحمد لله رب العالمين }، فإن تمام تربيتهم هو بإنزال هذا القرآن ، المتضمن للتنظيمات الإلهية، والإرشادات الربانية، والتعاليم المبينة لجميع الحقوق الاجتماعية، والفردية، والأدبية، والمالية.

وهو الكتاب الجامع والكفيل لمصالح العباد وسعادتهم في الدنيا والآخرة، لأنه أنزله الله تعالى خالق العالمين، فهو العليم الخبير بما فيه صلاح مخلوقاته ونجاحهم.

قال تعالى:{ آلم . تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين}.

وقال تعالى- ممتناً على عباده- :{ حم. تنزيل من الرحمن الرحيم. كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون}.

فقد نزله الرحمن الرحيم ليرحم العباد والبلاد ، ويسعدهم في الدنيا؛ والآخرة يوم المعاد.

كما بين سبحانه أنه أنزله ليخرج الناس من الظلمات إلى النور؛ قال تعالى:{ آلر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد }.

والظلمات أنواع: ظلمة الكفر بأنواعه، وظلمة الجهل – والجهل نوعان : جهل علمي وجهل عملي، وكل منهما يتنوع إلى أفراد متعددة- وظلمة الظلم وهو نوعان: ظلم الإنسان لنفسه ، وظلم الإنسان لغيره: من إنسان وحيوان ودابة وطائر إلى غير ذلك، وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم :[إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات].

فجاء القرآن الكريم يخرج الناس من تلك الظلمات ، من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان ، ومن ظلمة الجهل إلى نور العلم والمعرفة، ومن ظلمة الظلم إلى نور الحق والعدل.

وإنما وصف الكفر والجهل والظلم بأنه ظلمات ، لأن شأن الظلمة أن تجعل صاحبها الماشي فيها تجعله في حيرة وشك يتخبط، وربما وقع في مكان سحيق، وهكذا الكفر فإن صاحبه ليس على دليل قاطع ، ولا برهان ساطع، وهكذا الجاهل يتخبط في جهله أو جهالته بغير علم ، ولا يدري عاقبة ما يفعله، وهكذا الظلم فإنه ثورة نفس وحشية شرسة ، فالظالم والحيوان الوحشي المفترس هما سواء...

ولما كانت محامده سبحانه وكمالاته لا نهاية لها، كان حمد كل حامد قاصراً عن إحصاء الثناء عليه سبحانه ، وعن الإحاطة بمحامده، وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنها قالت: فقدت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذات ليلة ، فالتمسته فوقعت يدي على بطن قدمه، وهو ساجد يقول:{ اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك][٣١] .

وأن أحمد الحامدين لرب العالمين من الأولين والآخرين هو سيدنا أحمد صلى الله عليه وآله وسلم، الذي ملأ العوالم كلها بمحامد الله تعالى، ولم يبق لغيره مكان ذرة، كما دل عليه حديث :[وملء ما شئت من شيء بعد] ، وكما دل عليه حديث:[فأحمده بمحامد لا أعلمها الآن]، وقال:[فيفتح الله تعالى علي من محامده وحسن الثناء عليه ما لم يفتح على أحد قبلي] [٣٢]

فتأمل ذلك تعلم يقيناً أنه لا أحد يحصي ثناء عليه، ولا أحد يحيط بحمده ، فإن محامده سبحانه على حسب صفات كمالاته ، وكمالاته لا حد لها ولا انتهاء، فإن الله تعالى قد فتح على سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم من محامده وحسن الثناء عليه ما لم يفتحه على أحد ، وسيفتح عليه يوم القيامة من محامده وحسن الثناء عليه محامد لا يعلمها الآن ؛ وهكذا إلى ما لا نهاية .

ولذلك أعطي مقام لواء الحمد الذي تحته جميع الحامدين من النبيين والمرسلين وأممهم ، ولذلك سماه الله تعالى أحمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وهذا من باب التسمية العلمية الملازمة للوصفية ، فهو ليس دالاً على الذات فحسب ؛ بل على الصفات .

قال تعالى : { ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد } صلى الله عليه وآله وسلم .

---

[٣١] رواه أبو داود وغبره.

[٣٢] رواه الترمذي وغيره.

وأمته المتبعون له سماهم : الحمادين ؛ كما ورد أن أمته صلى الله عليه وآله وسلم الحمادون ؛ فهم في أعلى مقام الحامدين الذين امتن الله تعالى عليهم بقوله : { التائبون العابدون الحامدون } في السراء والضراء .

وكان صلى الله عليه وآله وسلم إذا أتاه الأمر يسره قال : [الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات] ، وإذا أتاه الأمر يكرهه قال:[الحمد لله على كل حال] رواه الحاكم، وابن السني، عن عائشة رضي الله عنها ، وفي رواية:[رب أعوذ بك من حال أهل النار].

وهذا مقام له فضله.

كما ورد : إن أول ما يدعى إلى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون الله تعالى في السراء والضراء.

والحمد هو رأس الشكر، كما جاء في الحديث ، عن ابن عمرو رضي الله عنهما مرفوعاً :[الحمد رأس الشكر، ما شكر الله تعالى عبد لم يحمده] رواه البيهقي وغيره، وقد رمز الحافظ السيوطي إلى حسنه.

وفي حديث الطبراني ، عن الأسود بن سريع مرفوعاً:[إن الله تعالى يحب أن يحمده] فالحامد لله تعالى هو محبوب عند الله تعالى.

وروى الإمام أحمد وغيره، عن انس رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا أوى إلى فراشه قال:[الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا، وكفانا وآوانا، فكم ممن لا كافي له ولا مؤوي له].

وفي (المسند) وغيره، عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا فرغ من طعامه قال :[الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا، وجعلنا من المسلمين].

وروى ابن السني ، عن أنس رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا نظر وجهه في المرآة قال:[الحمد لله الذي سوى خلقي فعدله، وكرم صورة وجهي فحسنها، وجعلني من المسلمين].

وروى الطبراني وغيره، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا نظر في المرآة قال:[الحمد لله الذي حسن خلقي وخلقي ، وزان مني ما شان من غيري].

وإذا لبس نعله بدأ باليمنى، وإذا خلع خلع اليسرى، وإذا دخل المسجد أدخل رجله اليمنى، وكان صلى الله عليه وآله وسلم يحب التيمن في كل شيء: أخذ وعطاء.

فهو سبحانه يحمد لكماله وجماله وجلاله، ولذلك كان صلى الله عليه وآله وسلم يقول كما جاء في الحديث المتفق عليه، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول:[اللهم ربنا لك الحمد أنت قيم السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت رب السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت مالك السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت الحق، ووعدك حق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم حق...] الحديث.

وإليه الإشارة بقوله تعالى :{ الحمد لله} أي: لأنه هو الله الإله الحق، المتصف بالكمالات المطلقة التي لا نهاية لها، وكمالاته ذاتية له، فحق له أن يحمد نفسه، وأن يأمر عباده بحمده سبحانه، ويحمد لنعمه ونواله.

ومن ذلك محامده صلى الله عليه وآله وسلم عقب الأكل والشرب.

وفي الحديث الذي رواه الترمذي :[إن الله تعالى ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها].

ويدخل تحت هذا الحمد الشكر، لأن الحمد رأس الشكر، كما تقدم.

وإليه يشير قوله تعالى:{ رب العالمين} ـأي: خالقهم ورازقهم ومالكهم ومربيهم، وسيدهم المطلق ، **فإن اسم الرب له معان:**

فقد يراد به الخالق ، وهذا هو الله تعالى وحده، فلا يراد به غيره، **وقد يراد به المالك**، فإذا وصف به العبد وجب تقييده، فتقول: رب الدار أي: مالكها ، **وقد يراد به السيد** ، قال تعالى – إخباراً عن يوسف عليه السلام

-:{ قال ارجع إلى ربك فسئله ما بال النسوة التي قطعن أيديهن }الآية- أي: ارجع إلى سيدك -، **وقد يراد به المربي** ، فيقال : فلان رب العائلة، ففي جميع ذلك إذا وصف به العبد يجب تقييده.

فإطلاق اسم الرب هذا خاص بالله تعالى ، فإنه سبحانه هو الرب المطلق، فلا يجوز اسم الرب على العبد ، كأن تقول فلان رب، فإن اسم الرب إذا أطلق لا يراد به إلا الله تعالى .

كما جاء في (صحيح) مسلم وغيره ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول:[اللهم ربنا ورب كل شيء أنا شهيد أنك الرب وحدك لا شريك لك.

اللهم ربنا ورب كل شيء أنا شهيد أن محمداً عبدك ورسولك.

اللهم ربنا ورب كل شيء أنا شهيد أن العباد كلهم إخوة.

اللهم ربنا ورب كل شيء اجعلني مخلصاً لك وأهلي في كل ساعة من الدنيا والآخرة- يا ذا الجلال والإكرام اسمع واستجب].

فاعتبر في قوله صلى الله عليه وآله وسلم :[أنا شهيد أنك الرب وحدك لا شريك لك]، فأطلق اسم الرب على الله تعالى وحده، ومن هنا تعلم أن اسم الرب بالإطلاق لا يطلق إلا على الله رب العالمين.

ومن خصائص اسم الرب أن فيه إجابة الدعاء، ويستحب تكريره كما روى البزار، عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال:[إذا قال العبد يا رب أربعاً قال الله تعالى : لبيك عبدي سل تعطه].

ورواية ابن أبي الدنيا كما تقدم يقول:[رب رب].

روى الطبراني وغيره، من حديث سعد ين خارجة ، أن قوماً شكوا إلى النبي صلى الهو عليه وآله وسلم قحوط المطر فقال: [اجثوا على الركب ، وقولوا: يا رب يا رب، وارفعوا السبابة إلى السماء] ففعلوا ذلك فسقوا، حتى أحبوا أن يكشف عنهم المطر.

وفي (المسند) وغيره، عن الفضل بن عباس رضي الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال:[الصلاة مثنى مثنى، وتشهد في كل ركعتين، وتضرع و وتخشع، وتمسكن، وتفتح يديك تقول ترفعهما إلى ربك مستقبلاً بهما وجهك، وتقول: يا رب يا رب ، فمن لم يفعل ذلك فهي خداج] أي: صلاته ناقصة.

وروى يزيد الرقاشي ، عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً :[ما من عبد يقول يا رب يا رب يا رب ، إلا قال له ربه لبيك لبيك].

وعن عطاء : (ما من عبد يقول يا رب ثلاثاً إلا نظر الله تعالى إليه).

{الحمد لله رب العالمين}

وأنواع العالمين لا يعلمها إلا خالقها، والعامل ما سوى الله تعالى من كل موجود ؛ مغيب أو مشهود .

قال تعالى:{ فتبارك الله رب العالمين}.

فالعوالم كثيرة كبيرة فمنها نفسية، ومنها آفاقية تشاهدها.

وفي قوله تعالى :{ رب العالمين**} ينبه الله تعالى إلى أمور فيها بينات وبيانات :**

أولاً: تعريف العباد ، وحملهم على الإقرار بوجوب وجوده، فإنهم يبصرون ويشاهدون العوالم ولا ينكرونها ، لأنها موجودة مشهودة، وهي علامات مثبتة لصانعها ، فمن الذي صنعها ، فإنهم لا يستطيعون ذلك.

إذاً إن لها خالقاً خلقها، لأنهم لا يستطيعون خلقها، فمن رأى البناية أيقن بوجود الباني، ومن رأى الأشجار أيقن بوجود الغارس لها، ومن رأى الآلات أيقن بوجود القوى المحركة لها- ولو لم يشهدها- ومن رأى المصنوعات أيقن بوجود صانعها؛ فهذا العالم المصنوع صنعه من ؟

نعم كما قال الله تعالى :{ صنع الله الذي أتقن كل شيء}.

ولذلك قال تعالى:{ أفي الله شك فاطر السماوات والأرض}.

فإذا شاهدوا العوالم بأعينهم فقد شاهدوا وعاينوا قدرة الله تعالى، الذي خلقها وأبدعها، وشاهدوا حكمته؛ أيقنوا بعلمه المحيط بكل شيء قال تعالى:{ ألا يعلم من خلق } ؟!

فالعلم بالخلق سابق على التخليق، والعلم بصنع البناء سابق على إقامة البناء عقلاً، فرؤيتهم مظاهر الصفات وآثارها تدلهم وتعرفهم بالله تعالى ، المتصف بجميع الكمالات المطلقة، معرفة تحملهم على اليقين الجازم ، بل تحملهم على عين اليقين بوجوب وجود الله تعالى رب العالمين، ووحدانيته، وحقية ألوهيته، وأن كمالاته لا تنتهي.

فالقدرة ما لها انتهاء كما قال تعالى:{ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة}.

فإن نسبة القليل والكثير إلى ما لا ينتهي هي متساوية، وإذا اختلفت دل على التناهي ، فإن نسبة العشرة والمائة إلى العدد الكبير المتناهي متفاوتة ، ولكن نسبتهما إلى ما لا يتناهى متساوية فافهم.

وفي الحديث: [ما السماوات السبع والأرضون السبع في الكرسي إلا كحلقة في فلاة، والكرسي في العرش كتلك الحلقة].

وقد فهم العارفون من هذا الحديث أن العوالم كروية مستديرة، لأنه صلى الله عليه وآله وسلم يشبه ذلك بالحلقة، وهي مستديرة.

وفي الحديث:[إن لله ملكاً لو أمره الله تعالى أن يبتلع السماوات والأرض بلقمة لابتلعها ، تسبيحه: سبحانك حيث كنت] رواه الطبراني.

وفي الحديث:[أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله تعالى: أن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام] رواه أبو داود.

فالقدرة الإلهية ما لها نهاية، فما صدر عنها من صغير وكبير؛ ومن جزئي وكلي؛ فذلك بالنسبة للقدرة على حد سواء، كما قال تعالى :{ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة}.

وعلمه سبحانه ما له انتهاء ، كما قال تعالى : { وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً } .

ومهما أقللت من هذه القلة و وتصورت من قلتها ، فالواقع أقل ، ولذا قال سيدنا الخضر لسيدنا موسى على نبينا وعليهما الصلاة والسلام كل حين وأوان ، قال له : [ما علمي وعلمك وعلم سائر الخلائق في علم الله تعالى إلا كما أخذ هذا العصفور من البحر . . .] متفق عليه .

فعلم الله تعالى وجميع صفاته لا حد لها ولا انتهاء ، فإن إليه المنتهى ولكنه ليس له انتهاء ، وبيان ذلك بمثل تقريبي ، للفرق بين الكثير وبين ما لا يتناهى ، مثل ذلك : لو أن الله تعالى أمر ملكاً من الملائكة عليهم السلام بنقل تراب عالم الدنيا إلى عالم آخر، فجعل الملك ينقل تراب الدنيا كل مليون سنة واحدة من التراب ، حسب ما أمر بذلك فهو كم يحتاج ؟ يحتاج إلى الملايين الكثيرة من السنين حتى ينقلها كلها إلى عالم آخر ، فمهما كثرت تلك السنون فهذه المدة الطويلة كلها متناهية؛ وإن طالت دهوراً وعصوراً، وهذه المدد الطويلة كلها تعتبر من باب المتناهيات، وأما ما لا يتناهى فهو ما لا يتناهى بحد ولا بمقدار، ولا بامتداد الدهور ولا الأعصار، ولا يدخل تحت حكم العد ولا الإحصاء، ولا الإحاطة ولا الاستقصاء، من جميع الوجوه والاعتبارات ، فسبحان من أحاط علمه بالمتناهيات واللامتناهيات.

ثانياً: فيه بيان فقر العالم إلى ربه ، وغنى الرب سبحانه بالذات عن العالمين، وإن فقر العالم إلى ربه هو فقر ذاتي من جميع الوجوه والاعتبارات ، وإن غنى الرب سبحانه عما سواه هو غنى مطلق ذاتي له وحده، فإن رب العالمين هو خالقهم ومربيهم، فالعالم في كل لحظة أو لمحة بصر بل أقرب من ذلك محتاج ومفتقر إلى أن يمده الله تعالى بالوجود، وما يتطلبه هذا الموجود مما يتوقف عليه نظام بقائه ووجوده، فإن المربوب لا يستغني عن ربه سبحانه وتعالى.

فإن جميع الأشياء- كما قرره أهل العلم- هي لدى السبر والتقسيم عقلاً وواقعياً هي ثلاثة أقسام:1-الواجب وجوده،2-المستحيل وجوده، 3 -الممكن وجوده وعدمه.

فواجب الوجود الذي لا يجوز في العقل عدمه أزلاً وأبداً هذا هو الله تعالى وحده ، بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا جل وعلا سبحانه وتعالى ، وهذا ثابت بالأدلة القاطعة ، والبراهين الساطعة ، كما هو مفصل في موضعه .

وأما المستحيل وجوده فهو ما يحيل العقل وجوده بالأدلة القطعية أيضاً ، كتعدد الآلهة ، وشريك الباري تعالى ، ونحو ذلك .

وأما الممكن وجوده وعدمه ، فهذا ليس له من نفسه إلا العدم ولكن لا على وجه الاستحالة كما هو في المستحيل ، بل الممكن هو قابل للوجود من موجده وهو الله تعالى ، فإذا أفاض الله تعالى نور الوجود عليه صار موجوداً بإيجاده سبحانه ، قال تعالى : { إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون } .

أي : فيظهر في عالم الكون بالوجود الخارجي ، ولكن هذا الوجود الذي ظهر به الممكن ليس واجباً له ، ولا يملكه ، فلا يستغني عن موجده لمحة بصر ؛ ولا أقل من ذلك ، بل هو مفتقر إلى إمداد الله تعالى له بالوجود في كل لمحة بصر ؛ بل أقرب من ذلك ، فما أشد فقر العالم إلى ربه ، وما أعظم غناء – سبحانه – عن غيره ، قال تعالى : { يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد . إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد }.

ثالثاً :فيه التحدي والإعلان لجميع العباد ، بعجزهم عن أن يخلقوا مثل هذا العالم ، بل هم عاجزون عن إحاطته ، فهو سبحانه رب العالمين وحده لا شريك له ، فهذه الكواكب وهذه الشمس ، وهذه الأرض ، وسيرها بحسبان دقيق ، وإيقاعها في أفلاكها ومواقعها المعينة لها ؛ ذلك تقدير العزيز العليم ، وهكذا الجبال والبحار ، والهواء والماء؛ فجميع ذلك تعجز عن إيجاده قدرة العباد ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ، فإذاً يقال من الذي أوجدها ؟ نعم هذا هوالله رب العالمين ، فالحمد لله رب العالمين حقاً .

رابعاً : فيه بيان كثرة العوالم وعظمها ، فإن الله تعالى العلي العظيم ، لما مدح نفسه ، وحمد نفسه سبحانه بأنه رب العالمين ، دل ذلك على أن أمر العوالم عظيم خلقاً وتدبيراً ، وأحكاماً وحكمة . . . وكلمة { العالمين } أي : هي كثيراً جداً لا تحصى ،فمن ذلك : عالم الأمر والخلق وسعتهما ،

وعالم الملكوت ، وعالم الجبروت ، وعالم العرش ، وعالم الكرسي ، وعالم القلم ، وعالم اللوح ، وعالم المثال ، وعالم البرزخ ، وقد ذكرت جملة من العوالم العلوية في كتاب : (هدي القرآن الكريم إلى معرفة العوالم والتفكر في الأكوان) فارجع إليه .

ومن جملة العوالم التي مر عليها الإنسان : عالم الأرواح ، وعالم الذر و وعالم الأصلاب ، وعالم الرحم ، وعالم الدنيا ، وعالم النوم .

وأما العوالم التي سيمر عليها الإنسان بعد الموت فقد ذكرت ذلك في الكتاب : (الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها) .

ولكل عالم من هذه العوالم التي مر عليها الإنسان أحكام وخصائص :

فعالم الذر هو المذكور في قوله تعالى : { وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى } – أي : أنت ربنا حقاً – { شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين } .

وعالم الأصلاب هو المذكور في قوله تعالى – ممتناً على هذه الأمة المحمدية : { إنا لما طغا الماء حملناكم في الجارية } – أي : الطوفان العام نصرة لنوح عليه السلام حملناكم يا أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم – { في الجارية } السفينة حيث كنتم في أصلاب الذين ركبوا مع نوح عليه السلام { لنجعلها لكم تذكرة وتعيهآ أذن واعية } – أي : لتتذكروا هذه النعمة عليكم ، وتعوا ؛ فتشكروا ربكم سبحانه .

ولما نزلت هذه الآية الكريمة ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : [سالت ربي أن يجعلها أذن علي] .

قال مكحول : فكان علي رضي الله عنه يقول : (ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شيئاً فنسيته) رواه سعيد بن منصور ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وبن أبي حاتم ، وابن مردويه عن مكحول .

وأما عالم الرحم فهو المذكور في قوله تعالى : { هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم }.

ففي هذا العالم جرى على الإنسان التصوير ، وتسجيل التقدير: بكتب رزقه، وأجله، وشقي أو سعيد، وخص كل إنسان بصورة ليست كغيرها من صورة من بني آدم ، وأجرى الله تعالى التبديل والتطوير عليه.

قال تعالى :{ يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم } أي: ظلمة المشيمة ، في ظلمة الرحم، في ظلمة بطن الحامل.

وقال تعالى:{ هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى} فلا تمدحوا أنفسكم ، بل احمدوا الله تعالى الذي وفقكم ، والمعنى : أن الله تعالى هو أعلم بكم وأحوالكم، بعلمه القديم الذي لا أول له، وهو أعلم بكم إذ أنشاكم في ضمن نشأة أبيكم آدم عليه السلام من تراب الأرض ، كما قال سبحانه:{ ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون}، ومن المعلوم أن الأرض مختلفة البقاع والتربة في لونها، ومنها السهل والوعر، ومنها الخبيث والطيب، فهو سبحانه يعلم من أي تربة خلقكم منها.

وبين معنى الآية ما جاء في الحديث عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :[إن الله تعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض؛ جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك، والسهل والحزن- أي: الغليظ الذي فيه عنف – والخبيث والطيب وبين ذلك] رواه الترمذي وصححه ، وأبو داود ، واحمد ، والحاكم وغيرهم.

فخلق سبحانه من الأرض الحمراء الأحمر، ومن البيضاء الأبيض، ومن السوداء الأسود، وهذا من حيث الألوان، ومن حيث الأخلاق : فخلق من سهل الأرض سهل الخلق اللين الرفيق، ومن حزنها وغليظها الفظ الغليظ، ومن الأرض الطيبة ذات النبات الحسن خلق المؤمن الطيب، فإنه طيب كله، طاب بالكلمة الطيبة وهي: لا إله إلا الله ، قال تعالى ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء }

جاء في الحديث هي : لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى اله عليه وآله وسلم .

وخلق من الأرض الخبيثة الكافر ، قال تعالى:{ والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكداً كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون}.

وقد روى سعيد بن منصور ، وأبو حاتم ، عن أبي هريرة رضي الله عنه : (إن الله تعالى لما أراد أن يخلق آدم عليه السلام بعث ملكاً من حملة العرش يأتي بتراب من الأرض ، فاخذ من وجهها- أي: من أديم الأرض كلها- ومن طيبها وخبيثها) الحديث كما في شرح المناوي والله تعالى أعلم.

وأما علم المنام فهو المذكور في قوله تعالى :{ ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون}.

ففي هذه الآيات ، ذكر سبحانه عالمي المنام واليقظة،وقرن بينهما، ليعلم الإنسان أن عالم المنام هو عالم حقيقي ليس وهمياً، بل له آثاره، ألا ترى النائم إلى جانبك يرى ما يسره فيضحك؛ وأنت تراه يضحك، ويرى ما يخفيه فيبكي؛ وأنت قد تراه يبكي ويصيح ويصرخ ، وقد يرى من يخاصمه ويجادله فقد يعلو صوته وأنت تسمع ما يقوله أحياناً ...إلخ.

فهذا دليل على أن المنام عالم حقيقي له آثاره، ويرى فيه الرؤيا الصادقة والصالحة، وقد يرى فيه الأحلام المختلطة ، ويعتبر عالم المنام برزخاً بين عالم الدنيا وبين عالم برزخ الآخرة بعد الموت، ولذلك قد يرى النائم ماذا يحصل أو يقع في اليقظة، لأن تلك الأمور تكون قد تنزلت حتى انتهت إلى البرزخ بين الدنيا والآخرة، وربما انكشف للنائم أمور غيبية لعروج روحه إلى العوالم العلوية- والناس في ذلك على مراتب مختلفة.

ويدلك على أن عالم المنام له اعتباره الحقيقي، ما ذكره الله تعالى عن يوسف الصديق على نبينا وعليه الصلاة والسلام :{ إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين }.

ثم ذكر سبحانه تحقق تلك الرؤيا وتأويلها ، فقال سبحانه :{ فلما دخلوا على يوسف ءاوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين. ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً }.

وقد تكلمت على أنواع الرؤيا وآدابها في كتابي : (الدعاء) وغيره ، كما ذكرت جملة من العوالم العلوية في كتاب : (هدي القرآن الكريم إلى معرفة العوالم والتفكر في الأكوان) فارجع إليه ينفعك بإذن الله تعالى .

{ الرحمن الرحيم}

جيئ بهذين الوصفين بعد قوله سبحانه:{ الحمد لله رب العالمين} وفي هذا وجوه من الحكم:

أولاً: بيان أن رحمته ملازمة لربوبيته، فهو سبحانه رب العالمين أي: خالقهم ، وملكهم أي: المدبر أمورهم والمتصرف فيهم ، ومالكهم فهم مملوكون له، وسيدهم فالكل عباده، ولكن جميع ذلك قائم على أساس الرحمة ، فخلقه وتدبيره أمور عباده وتصرفه فيهم كل ذلك محاط بالرحمة ، قال تعالى:{ الرحمن على العرش استوى}، فالعرش العظيم محيط بجميع العوالم وهو – أي: العرش- محاط باسم الرحمن.

وقال سبحانه – في سورة يونس -:{ إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر} الآية.

فتدبيره أمور عباده ومخلوقاته كل ذلك صادر عن رحمانيته، ومن المعلوم أن العرش العظيم هو محيط بج ميع العوالم ، كما دلت على ذلك الأحاديث النبوية ، وقد ذكرت ذلك مفصلاً في متابي : (هدي القرآن الكريم إلى معرفة العوالم).

ثانياً: إن ذكره سبحانه هاتين الصفتين { الرحمن الرحيم} بعد قوله :{ الحمد لله رب العالمين} فيه بيان وجه من وجوه استحقاقه للحمد وذلك لأنه { الرحمن الرحيم}.

ثالثاً: فيه بيان أن رحمته وسعت جميع الخلائق، وجميع العالمين في جميع العوالم الماضية والآتية، على مختلف أجناسها وأصنافها، كما قال سبحانه:{ ورحمتي وسعت كل شيء}.

رابعاً: لقد ذكر الله تعالى في سورة الرحمن التي افتتحها باسمه الرحمن؛ ذكر فيها شمول رحمته وشواهد ذلك ومشاهد ذلك، فعدد أصنافاً كثيرة وأنواعاً كبيرة من آثار اسمه الرحمن ، ومظاهره في الأكوان، وما في ذلك من نعمه وآلائه في الدنيا والآخرة، وكلما ذكر صنفاً من النعم أردفها بقوله تعالى :{ فبأي آلاء ربكما تكذبان } امتناناً عليهم بما هم يقرون به ، ولا يمكنهم إنكاره، في سورة الرحمن ترى مظاهر هذا الاسم وآثاره المتجلية في جميع العوالم والأكوان : المشهودة بالجنان، والمبصرة بالعيان؛ الساطعة البرهان على وجه لا يختلف فيه اثنان ، كما قال سبحانه:{ فبأي آلاء ربكما تكذبان }.

وقد نقل الحافظ البيهقي عن العلامة أبي سليمان الخطابي أنه قال: ذهب الجمهور من الناس – أي: العلماء- أن اسم الرحمن مشتق من الرحمة، مبني على المبالغة- أي: جاء على صيغة فعلان التي تدل على المبالغة- ومعناه ذو الرحمة التي لا نظير له فيها سبحانه، ولذلك لا يثنى ولا يجمع، كما يثنى اسم الرحيم ويجمع، وبناء فعلان في كلامهم – كلام العرب- بناء المبالغة ، يقال لشديد الامتلاء : ملآن، ولشديد الشبع: شبعان.

قال رحمه الله تعالى : والذي يدل على مذهب الاشتقاق في هذا الاسم – أي: اسم الرحمن من الرحمة خلافاً لمن أنكر اشتقاقه – حديث عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه ، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول:[قال الله عز وجل : أنا الرحمن خلقت الرحم، وشققت لها اسماً من اسمي ، فمن وصلها وصلته ، ومن قطعها قطعته].

قال الخطابي رحمه الله تعالى : فالرحمن هو ذو الرحمة الشاملة التي وسعت الخلق في أرزاقهم وأسباب معايشهم ومصالحهم ، وعمت المؤمن والكافر والصالح والطالح ، وأما الرحيم فخاص بالمؤمنين لقوله تعالى :{ وكان بالمؤمنين رحيماً}.

قال: والرحيم وزنه فعيل بمعنى فاعل، وبناء فعيل أيضاً للمبالغة كعالم وعليم وقادر وقدير.اه.

فالله تعالى و الرحمن الرحيم و وهو سبحانه خير الرحمين، كما قال سبحانه :{ وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين }، وهو سبحانه أرحم الراحمين ، قال تعالى :{ وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين}.

وهذا من جملة الاسم الأعظم الذي إذا دعي الله تعالى به أجاب ولذلك قال تعالى:{ فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر } الآية.

ومن دعائه صلى الله عليه وآله وسلم : [اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين] الحديث المشهور وقد ذكره بتمامه في كتاب (الدعاء) .

وروى أبو الشيخ وغيره ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : [ألح رجل بيا أرحم الراحمين – أكثر من دعائه يا أرحم الراحمين – فنودي أن قد سمعتك فما حاجتك] أي : فسل تعط .

وروى الحاكم ، عن أبي أمامة رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : [إن لله تعالى ملكاً موكلاً بمن يقول : يا أرحم الراحمين ، فمن قالها ثلاثاُ ، قال له الملك : إن أرحم الراحمين قد أقبل عليك فسل] أي : تعط .

وروى العلامة السهيلي بسنده إلى الليث بن سعد قال: بلغني أن زيد بن حارثة اكترى – أستأجر- بغلاً من رجل، واشترط عليه أن ينزله حيث شاء زيد .

قال: فمال به- صاحب البغل- إلى خربة فقال له: انزل فنزل، فإذا في الخربة قتلى كثير – أي: كان يأخذ مالهم ثم يقتلهم في تلك الخربة المهجورة بسيف معه- فلما أراد أن يقتله ، قال له زيد : دعني أصلي ركعتين، قال: فلما صليت أتاني ليقتلني ، فقلت : دعني أصلي ركعتين ، قال: فلما صليت أتاني ليقتلني ، فقلت: يا أرحم الراحمين ، قال: فسمع

صوتاً لا تقتله،فهاب الرجل من ذلك الصوت ، فخرج ليطلب- أي: ليبحث عن الصوت – ثم رجع إلي، فناديت: يا أرحم الراحمين- فعل ذلك ثلاثاً- فإذا أنا بفارس على فرس بيده حربة حديد ، في رأسها شعلة نار، فطعنه بها فأنفذها من ظهره، فوقع ميتاً ثم قال لي: أي: الفارس- لما دعوت المرة الأولى يا أرحم الراحمين كنت في السماء السابعة ، فلما دعوت الثانية يا أرحم الراحمين كنت في سماء الدنيا ، فلما دعوت المرة الثالثة يا أرحم الراحمين أتيتك.

قال الحافظ الزرقاني : وفي هذا دليل الاعتناء بهذا الدعاء، وأن المخلص فيه محقق الإجابة .اه من (المواهب وشرحها).

{ مالك يوم الدين}

المالك : هو الذي يملك رقاب الأشياء وذواتها، فهي ملك له، وأما الملك فهو المتصرف في الأمور والمدبر لها، فالله تعالى هو { مالك يوم الدين} ومالك ما جمع فيه من الأولين والآخرين ، وهو ملك يوم الدين كما جاء في قراءة سبعية ، وقال تعالى:{ الملك يومئذ لله يحكم بينهم}.

وروى البخاري ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال:[يقبض الله تعالى الأرض، ويطوي السماء بيمينه ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض].

وأم ر الدين} فقد تطلق كلمة الدين على العقيدة وما تتطلبه من الأعمال والأقوال، ومنه: { إن الدين عند الله الإسلام} أي:الاستسلام له سبحانه، اعتقاداً بالجنان، وعملاً بالأركان، وقولاً باللسان.

ويقال: دان بهاعتقده وعمل به، قال تعالى – في الكفار- :{ ولا يدينون دين الحق}.

وقد تطلق كلمة الدين على الحساب والجزاء ، قال تعالى :{ إن الأبرار لفي نعيم . وإن الفجار لفي جحيم . يصلونها يوم الدين . وما هم عنها بغائبين، وما أدراك ما يوم الدين. ثم ما أدراك ما يوم الدين . يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله}.

يقال: دانه إذا حاسبه وجازاه، قال تعالى :{ يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ...} أي: جزاءهم الحق دون ظلم .

وكما جاء في الحديث :[الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني][٣٣].

فمعنى دان نفسه :أي: حاسب نفسه في الدنيا قبل الموت.

فالمراد بالدين هنا في الآية : الجزاء والحساب ، وما يترتب عليه من ثواب وعقاب، فهو سبحانه وتعالى مالك يوم الدين ، وهو ملكه وحده لا غيره ، كما قال سبحانه : { إن إلينا إيابهم . ثم إن علينا حسابهم}.

وكما جاء في الحديث الذي رواه عبد الرزاق في (مصنفه) عن أبي قلابة ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال:[البر لا يبلى ، والذنب لا ينسى ، والديان – سبحانه- لا يموت، اعمل ما شئت كما تدين تدان] أي: تحاسب.

وعن عبد الله بن أنيس رضي الله عنه ، أنه سمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول:[يحشر الله تعالى العباد يوم القيامة- أو قال: الناس- عراة غرلاً بهماً].

قال: قلنا: وما بهما ؟

قال: [ليس معهم شيء.

ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب : أنا الديان ، أنا الملك :

لا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وله عند أحد من أهل الجنة حق ؛ حتى أقصه منه.

---

[٣٣] رواه الترمذي وأحمد وابن ماجه والحاكم، عن شداد بن أوس رضي الله عنه، وفي رواية البيهقي عن أنس رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال:[الكيس من عمل لما بعد الموت ، والعاري : العاري من الدين ، اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة..].

ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولأحد من أهل الجنة عنده حق؛ حتى أقصه منه – حتى اللطمة].

قال: قلنا: كيف وإننا عراة غرلاً بهما؟

قال:[الحسنات والسيئات...][٣٤].

وجاء { مالك يوم الدين } بعد ر الرحمن الرحيم} ليبين سبحانه كمال ربوبيته بالرحمة لعباده المربوبين ، ومن الرحمة أن ينزل عليهم كتباً و ويرسل رسلاً فتعلمهم ما ينفعهم وما يضرهم، بأوامر ومناهي، فمن أطاع فله جزاؤه ، ومن أساء فعليه سوؤه؛ فمن الرحمة إنزال الكتب وشرع الشريعة، قال تعالى :{ حم. تنزيل من الرحمن الرحيم}.

وهو يتضمن أوامر ومناهي ، فمن أخذ بها وأطاع وأحسن فله الحسنى، ومن أساء فله السوآى- كما هو مقتضى الحكمة .

قال تعالى:{ فما يكذبك بعد بالدين . أليس الله بأحكم الحاكمين }.

وفي الحديث :[يقول الله تعالى يوم القيامة : أنا أرحم الراحمين ، وأحكم الحاكمين].

وقال تعالى:{ كلا بل تكذبون بالدين . وإن عليكم لحافظين ....}الآيات.

و{ يوم الدين } هو من أيام الآخرة و وذلك لأن اليوم الآخر هو آخر الأيام ، وله أول وما له آخر، فقد اشتمل هذا اليوم على أيام وأزمنة، يوقع الله تعالى فيها الوقائع ،ويحق فيها الحقائق، ويجري فيها أموراً متعددة ، فمن تلك الأيام الأخروية يوم الخروج ، ويوم الجمع ، ويوم التناد، ويوم الآزفة، ويوم الحساب، ويوم العرض على الله تعالى ، ويوم الدين.

ويرحم الله تعالى القائل :

إلى ديان يوم الدين نمضي

وعند الله تجتمع الخصوم

---

[٣٤] رواه الإمام أحمد بإسناد حسن.

سنعلم في المعاد إذا التقينا

غداً عند الحساب من الظلوم

فيوم الخروج قال الله تعالى : { يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج . إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير. يوم تشقق الأرض عنهم سراعا } الآيات .

وهو يوم الجمع قال تعالى : { وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه } الآية .

وقال تعالى : { ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً } أي :جمعناهم في صعيد واحد .

{ مالك يوم الدين .}

أي : الجزاء ، ومنه قوله تعالى : { وإن الدين لواقع } أي :الجزاء والحساب ، وهذا في اليوم الآخر .

فهما يومان :يوم الدنيا المشتمل على السنين والأيام ، واليوم الآخر المشتمل على أيام متعددة تجري فيها وقائع وأمور ؛ يوقعها الله تعالى إلى أن ينتهي أمر العباد إلى الجنة أو النار .

فاليوم الآخر يشتمل على أيام – كما تقدم – فمنها :

يوم الخروج ، ويوم التناد ، ويوم الجمع – أي :الحشر .

ويوم العرض على الله تعالى كما قال سبحانه : { يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية } الآية .

ويوم الحسرة كما قال سبحانه :{ وأنذرهم يوم الحسرة } .

ويوم التلاق كما قال سبحانه :{ يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق} .

ويوم الفصل ، وهو القضاء بين العباد ، كما قال سبحانه :{ إن يوم الفصل كان ميقاتاً}.

ويوم الآزفة كما قال سبحانه :{ وأنذرهم يوم الأزفة } أي: القيامة القريبة ، وذلك بالنسبة لما مضى .

قال تعالى :{ أزفت الأزفة . ليس لها من دون الله كاشفة } أي: نفس كاشفة وقت وقوعها ، أو مزيلة لأهوالها.

وفي ذلك اليوم يكون القضاء بين العباد ، قال تعالى :{ وجاء ربك والملك صفاً صفاً } فلما جاء لفصل القضاء ، أشرقت الأرض بنور ربها ، قال تعالى :{ وأشرقت الأرض بنور ربها } أي: حين تجلى لفصل القضاء ، وبهذا النور ظهرت خفايا الأمور ، وخبايا الصدور ، فهنا علمت نفس ما أحضرت ، ووجدت ما عملت ، لأن قوة النور تظهر دقائق الأمور .

وفي قوله تعالى :{ وأشرقت الأرض } دليل قوة نورها ، قال سبحانه :{ الله نور السماوات والأرض} أي: فهو نورها ، وبه ظهورها ، فأظهرها بأنواره من ظلمات العدم فصارت ظاهرة ، موجودة بنور الوجود المفاض عليها من واجب الوجود، الذي أشرقت له الظلمات فصلح أمر الدنيا والآخرة .

وقد جاء في دعائه صلى الله عليه وآله وسلم يوم الطائف : [اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي، وهواني على الناس .

يا أرحم الراحمين : إلى من تكلني ، إلى عدو يتجهمني – أي: يتلقاني بالغلظة والوجه الكريه – أم إلى قريب ملكته أمري ، إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي – وفي رواية :[إن لم تكن ساخطاً علي فلا أبالي] – غير أن عافيتك أوسع لي .

أعوذ بنور وجهك الكريم الذي أضاءت له السماوات والأرض ، وأشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة : أن تحل علي غضبك ، أو تنزل علي سخطك .

ولك العتبى – أي : الرجوع عما لا يرضيك – حتى ترضى ولا حول ولا وقوة إلا بك] رواه الطبراني وغيره عن عبد الله بن جعفر .

{ مالك يوم الدين . }

في ذلك تنبيهات متعددة :

الأول : فيه تنبيه إلى حقية ذلك اليوم ، ومعقوليته ، وحكمته ، ولك أن القضية هي دين ، أي : جزاء ، ومن المعلوم أن الجزاء إنما يكون عقلاً على حسب العمل ، فالمحسن له إحسانه ، والمسيء عليه سوؤه { ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى } وهذا مما يقره كل ذي عقل .

فقوله تعالى : { مالك يوم الدين } جاء بعد قول ه تعالى : ر الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم } .

فإن الله تعالى رب العالمين ، ومن شأنه أنه يربي عباده ، ويدلهم على ما فيه صلاحهم ، ويحذرهم ما فيه فسادهم ، وذلك بإنزال الشرائع الإلهية ، والكتب الإلهية التي جاءت به الرسل عليهم السلام ، فمن العباد من حقق تلك الإرشادات والتعاليم الإلهية الشرعية ، فأحسن العمل وأصلحه ، ومنهم من خلاف تلك الإرشادات والشرائع فأفسد وأساء ، فلا بد من مقتضي الحكمة أن يلقي كل جزاء ما عمله ، كما قال سبحانه : { ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى } .

وقال تعالى : { هل جزاء الإحسان إلا الإحسان } .

وقال سبحانه : { للذين أحسنوا الحسنى وزيادة } الآية .

فجاء { مالك يوم الدين} يبين حكمة رب العالمين في جمعه الناس يوم الدين ، وأنه ا بد منه ، لأنه يوم فيه جزاء كل عامل بعمله، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم في خطبته :[ألا وإن الدنيا عرض حاضر ، يأكل منه البر والفاجر، ألا وإن الآخرة أجل صادق يقضي فيها ملك قادر.

ألا وإن الخير كله بحذافيره في الجنة ، ألا وإن الشر كله بحذافيره في النار.

ألا فاعملوا وأنتم من الله على حذر ، واعلموا أنكم معروضون على أعمالكم ، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره].

قال في (المشكاة): رواه الشافعي رضي الله عنه ، وفي (الدر المنثور): رواه أبو نعيم والحسن بن سفيان في (مسنده).

كما قال تعالى :{ يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه } أي: إنك كادح في هذه الدنيا إلى أن تلقى ربك فيجازيك ويحاسبك .

الثاني: التنبيه إلى إحسان العمل ، لأنه سوف يجازى عليه ، والإبعاد عن السوء لأنه سوف يلقى سوء ما عمل.

الثالث: أن ذلك مقتضى الحكمة ، لأن المساواة بين المحسن والمسيء غير معقولة ولا مقبولة ، كما أنه لا تتساوى الأضداد: العلم والجهل، والظلمة والنور، قال تعالى :{ أم نجعل الذين آمونا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار . كتاب أنزلناه مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب }.

وقال تعالى :{ فما يكذبك بعد بالدين ، اليس الله بأحكم الحاكمين }.

فالدين – أي: الجزاء على الأعمال – هو مقتضى الحكمة الإلهية ، والله تعالى يوفيهم دينهم الحق – أي: جزاءهم – وهو { مالك يوم الدين }.

الرابع: فيه دليل على أن العباد المكلفين أعطاهم الله تعالى العقل والفكر ولا اختيار ، والقدرة الممكنة لهم من فعل الخير والشر، ورتب على ذلك جزاءهم ، فلولا أن لهم اختياراً لما استحق المسيء العقاب، ولما استحق المحسن الثواب ، لأنه حينئذ كل قد فعل ما فعله مجبوراً؛ ولم يكن مختاراً.قال تعالى – في الكفار -:{ ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون}.

فنسب البغي إليهم ، وأخبر سبحانه بأنه صادق فيما يقوله ؛ والصدق هو : مطابقة القول للواقع الحقيقي ؛ فإذاً هم بغاة حقاً وحقيقة ، باختيارهم وإرادتهم ، ومن أصدق من الله قيلاً ؟

وقال تعالى :{ وهل نجازي إلا الكفور }.

وقال سبحانه :{ أولئك هم الكافرون حقاً } أي: حقيقة واقعة ، لا وهماً ولا خيالاً.

وقال سبحانه – في المؤمنين -:{ أولئك هم المؤمنون حقاً } أي: حقيقة واقعية ، هم مؤمنون باختيارهم ، لا وهماً ولا تخيلاً .

وقال تعالى :{ إن هذا لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً } أي: نعيم الجنة كان لكم جزاء على عملكم المبرور ، وشكرهم على سعيهم ، لأنه صدر منهم باختيارهم ؛ فلولا أن لهم اختياراً في ذلك لما استحقوا الشكر على سعيهم .

وقال تعالى :{ ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وءامنتم وكان الله شاكراً عليماً }.

الخامس :{ مالك يوم الدين } في هذا موقف يمجيد العبد لربه تعالى ، كما جاء في الحديث :[فإذا قال العبد :{ مالك يوم الدين } قال الله تعالى : مجدني عبدي] والممجد في اللغة : علو الشرف ، وعزة المقام ، ولا شك أن المجد الأعظم ، والعز الاكرم، والسلطان الامنع، والمقام الأرفع على وجه لا يساوى ولا يدانى ، ولا يماثل ولا يشابه، ذلك كله لله رب العالمين وحده، فإنه سبحانه هو أهل الثناء والمجد الذاتي المطلق ، الأعلى الأجل، ومن ثم جيء بعد الحمد في قوله تعالى :{ الحمد لله رب العالمين } وبعد الثناء في قوله تعالى :{ الرحمن الرحيم } جيء بالتمجيد بقوله :{ مالك يوم الدين } وقد كان رسول لله صلى الله عليه وآله وسلم يجمع بينهما كما جاء في (صحيح) مسلم ، عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا رفع رأسه من الركوع قال :[ربنا لك الحمد ، ملء السماوات ، وملء الأرض و وملء ما بينهما ، وملء ما شئت من شيء بعد ، أهل الثناء والمجد ، أحق ما قال العبد ، وكلنا لك عبد ؛ اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد]).

فالله تعالى هو الحميد المجيد ، وهو سبحانه يحمد نفسه وحق له ذلك ، ويمجد نفسه وحق له ذلك .

روى الإمام أحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قرأ هذه الآية ذات يوم على النبر :{ وما قدروا الله حق

قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون } ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول بيده هكذا يحركها يقبل بها ويدبر : [يمجد الرب نفسه : أنا الجبار ، أنا المتكبر ، أنا الملك ، أنا العزيز ، أنا الكريم].

قال ابن عمر رضي الله عنهما : فرجف المنبر برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى ليخرن به .

وفي رواية مسلم : قال ابن عمر رضي الله عنهما ، حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء – أي : كله – حتى غني لأقول : أساقط برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

فانظر يا أخي المؤمن ويا أختي المؤمنة ، واعتبرا في هذا المنبر كيف يتأثر بموعظة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ويخشع لسماعه حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ويغلبه حال الخشية والهيبة ، فيهتز ، ويضطرب .

وسبقه إلى ذلك جذع النخلة الذي كان يخطب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عنده ، فلما فارق وصعد المنبر غلبه حال الشوق وألم الفراق للجبيب الأكرم صلى الله عليه وله وسلم ، فصاح وناح ، وحن وأن ، حتى مسحه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وسكنه ، وهدأه كما يهدأ الصبي من بكائه ، فما بالك أنت يا أخي لا تتذكر ، ولا تتأثر ، ولا نحن شوقاً إليه صلى الله عليه وآله وسلم .

على نفسه فليبك من ضاع عمره

وليس له من ذا نصيب ولا سهم

{ إياك نعبد وإياك نستعين }

أي : لا نعبد إلا إياك ، لأنك ربنا ورب كل شيء ، والكل عبادك ، وحق على العبد أن يعبد ربه سبحانه .

والعبادة هي : قيام العبد وأعمال وأقوال شرعها الله تعالى له ، ملا حظاً أنه عبد يطيع ويتذلل ، ويخضع لربه الذي هو رب العالمين ، وأن ما يقوم به من تلك الأعمال والأقوال حق الله تعالى عليه ، فالعبادة قائمة على هذه الأمور .

1-معرفة الله تعالى ، واعتقاد وحدا نيته .

2-الطاعة لله تعالى فيما أمر به ، والانتهاء عما نهى بواسطة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم .

فالائتمار بأمره تعالى ، واتقاء ما حرمه هو العبادة ، كما في الحديث : [اتق المحارم تكن أعبد الناس . . .] الحديث كما في (سنن) الترمذي .

ولا بد في ذلك كله من ملاحظة الذل ، وخضوع العبد لربه الذي خلقه ورزقه ، وبيده الأمر كله ، وهو رب العالمين كلهم .

3-ملاحظة أن ذلك كله من باب القيام بواجب حق الرب سبحانه عليه ، باعتبار أن للرب حقاً على العبد أن يعبده .

فالعبادة أمر تقتضيه العبودية لله تعالى ؛ فمن خرج من دائرة العبدية لله تعالى ليس عليه أن يعبد الله تعالى – يعني : إذا زعم الإنسان أنه رب نفسه وأنه خلقها ، وهو يحييها ، وهو يميتها ، فما عليه أن يعبد رباً ، لأنه رب نفسه فيما يزعم ! ! ولكن لا يقول ذلك إلا المجنون ، بل والله لا يقول ذلك المجنون ، ولا الحيوان ، ولا الحمار، زلا ما هو دون ذلك ، لأنه إذا كان يزعم أنه رب نفسه فليرزق نفسه وبمنع عنه الآفات ؛ والعاهات ؛ والموت ، قال تعالى : { فلولا عن كنتم غير مدينين . ترجعونها إن كنت صادقين } .

فالرب حق وهو رب العالمين ، وكل ما سواه فهم عبيد له .

قال تعالى : { إن كل من في السماوات والأرض إلا ءاتى الرحمن عبداً } أي : الآن ، وأما يوم القيامة فقد قال بعد ذلك سبحانه : { وكلهم ءاتيه يوم القيامة فرداً } .

إذاً فالعبادة لله تعالى هي حق ذاتي له ، لاه الري وحده ، وكلهم عباده .
قال تعالى : { يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون . الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون } .

فانظر في قوله تعالى :{ اعبدوا ربكم } أي : لأنه ربكم وأنتم عباده .

ثم أردف ذلك بدليل ربوبيته الحقة فقال :{ الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون } الآية .

ومن هنا جاء في الحديث عن معاذ فقال :{ الي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون } الآية .

ومن هنا جاء في الحديث عن معاذ رضي الله عنه قال: كنت رديف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على الدابة يوماً ، فقال لي :[يا معاذ].

قلت: لبيك يا رسول الله – ثم سكت ساعة .

ثم قال :[يا معاذ].

قلت : لبيك يا رسول الله – ثم سكت ساعة .

ثم قال : ب يا معاذ بن جبل].

قلت : لبيك وسعديك يا رسول الله .

قال:[أتدري ما حق الله على عباده]؟

قلت: الله ورسوله أعلم .

قال صلى الله عليه وآله وسلم :[حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً].

ثم قال:[يا معاذ].

قلت : لبيك يا رسول الله .

قال:[أتدري ما حق العباد على الله إذا عبدوه ولم يشركوا به شيئاً]؟

قلت : الله ورسوله أعلم .

قال :[حق العباد على الله إذا عبدوه ولم يشركوا به شيئاً أن لا يعذبهم][٣٥] .

فحق الله تعالى على عباده أن يعبدوه ؛ هو حق واجب ذاتي له ، وأما حقهم عليه إذا عبدوه ولم يشركوا به شيئاً أن لا يعذبهم ، وفي رواية :[أن يغفر لهم] وفي رواية :[أن يدخلهم الجنة] فهذا حق هو سبحانه حقه على نفسه ، تفضلاً منه وتكرماً ، فإنه سبحانه من كرمه وفضله هو قد يحق على نفسه ، وقد يوجب على نفسه ، ويكتب على نفسه ، ويحتم على نفسه ، ويحرم على نفسه ، كل ذلك من باب الفضل والكرم ، والجود الإلهي .

قال تعالى :{ وكان حقاً علينا نصر المؤمنين } .

وقال تعالى :{ وما من دآبة في الأرض إلا على الله رزقها } .

وقال تعالى :{ كتب ربكم على نفسه الرحمة } .

وقال تعالى :{ كان على ربكم حتماً مقضياً } .

وفي الحديث القدسي :[وجبت محبتي للمتحابين في ،وللمتباذلين في ، وللمتزاورين في ،وللمتجالسين في] كما في الصحيح .

فهو سبحانه يحق على نفسه ، ويوجب على نفسه فضلاً منه وكرماً ، وأما غير الله تعالى فما له على الله تعالى حق واجب عليه ، لأن كل ما سواه فهم عباد له سبحانه .

وفي الحديث :[يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا][٣٦] .

{ إياك نعبد}

هذا تلقين وتعليم من الله تعالى لعباده أن يقولوا ذلك ، بعد أن وقفوا موقف الذاكرين له ب { بسم الله الرحمن الرحيم }، وموقف الحامدين له بقوله :{

---

[٣٥] متفق عليه.

[٣٦] رواه مسلم في (صحيحيه) .

الحمد لله رب العالمين }، وموقف المثنين عليه بقوله :{ الرحمن الرحيم }، وموقف التمجيد له بقوله :{ مالك يوم الدين }، فقدموا تلك المقدمات ، وارتقوا في القرب وعلو الدرجات فقال لهم قولوا :{ إياك نعبد وإياك نستعين } الآيات.

فعلمهم السؤال ، والاستهداء، والاستجداء .

{ إياك نعبد وإياك نستعين . اهدنا الصراط المستقيم }

فأنت ترى أن جميع ذلك جيء فيه بالنون الدالة على الجمع ، فيقول العبد :{ إياك نعبد وإياك نستعين } ولا يقول : إياك أعبد بالإفراد ؛ وذلك لحكم :

أولاً : هذا موقف فيه هضم النفس ، والاعتراف والإقرار بالعبودية لرب العالمين ، والاستشعار بالذل والافتقار له، فكأنه يقول بلسان حاله : يا ألله ، أنت رب العالمين ، وأنت الرحمن الرحيم، ومالك يوم الدين، ولك عزة الربوبية ، وسيادة الألوهية ، ما أنا بالذي بلغت عبادتي القاصرة تلك المكانة حتى أذكرها وحدها، وأتقدم بها إليك، بل أخلطها وأجمعها إلى عبادات جميع العابدين لك، وأذكر الكل بعبارة واحدة – لعلك ترضى- فاسلكني في نظامهم ، وأجملني في جملتهم، فإن فيهم الأنبياء ، والرسل، والأولياء ، وكلهم عبادك وعبادك و وخاصة إمام العباد وسيد العباد، وإمام الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، فاقبلني في جملة العابدين من أتباعه ، وتقبل عبادتي بشفاعته وكرامته صلى الله عليه وآله وسلم ، فهو إمام العباد والصالحين ، بنص قوله تعالى :{ إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين }.

فإن ولاء الله تعالى وتوليته لعبد هي على قدر صلاحه ، فلما خص الله تعالى سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بتوليته الخاصة، في قوله :{ إن وليي الله } دل على أن صلاحه فوق كل صلاح، وهو صلى الله عليه وآله وسلم أتقى الأولين والآخرين ، وأخشاهم لله تعالى رب العالمين ، كما في الحديث :[أما والله إني لأتقاكم لله وأخشاكم له ....].

وهو أكرمهم على الله تعالى ، كما في الآية :{ إن أكرمكم عند الله أتقاكم }.

صلى الله عليه وآله وسلم كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون .

ثانياً : اتهام العابد عن نفسه بنقص العبادة اللائقة ، فيشفعها إلى عبادة العابدين ، لعل الله تعالى يقبل ذلك ، فإن من كرمه سبحانه أن يلحق الناقص بالكاملين إذا انضم إليهم ، كما جاء في الحديث :[هم القوم لا يشقى بهم جليسهم] والحديث معلوم .

ثالثاً: إن الجمع في ر إياك نعبد } وما بعدها فيه إعلان عن حاجة الكل إلى عبادته سبحانه وتعالى ، التي خلقهم الله تعالى لأجلها ، كما قال سبحانه :{ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون }، ففي الجمع بيان أن جميع العباد والعابدين واقفون في هذا الباب – أي: التوجه إلى الله تعالى المعبود وحده – وهو أي العابد القائل : { إياك نعبد } هو واقف معهم ، وفيهم كامل العبادة وناقصها ، فكمال أهل الكمال يجبر ويغطي على أهل النقص؛ من باب الفضل والجود الإلهي ، لأنه أكرم الأكرمين جل وعلا ، فهو أجل من أن يقبل بعضاً ويرد بعضاً ، في حين أن الكل واقفون على بابه ، ومتوجهون غلى جنابه في عباداتهم، واستعانتهم به، وطلب الهداية منه إلى ما هنالك – سواء كانوا مجتمعين بأجسامهم كصلاة الجماعة ، أو متفرقين منفردين ، فإن القلوب كلها مجتمعة ومتوجهة إلى رب واحد ، وعبود واحد سبحانه وتعالى ، والكل يطلبون الإعانة ويسألونها من رب واحد، ومعبود واحد، ومعين قدير واحد سبحانه وتعالى ، والكل متبعون في عباداتهم لإمام واحد ، وهو الإمام الأكبر ، والحبيب الأعظم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، إمام الأولين والآخرين ، والأنبياء والمرسلين ، صلى اله تعالى عليه وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً .

فلا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صلاة تليق بمقامه الأسمى ، وكماله الأسنى ، وعلى آله وصحبه ، وأزواجه وذريته ، وعلينا معهم أجمعين .

{ إياك نعبد }

قياماً بالحق الذي لك علينا ، ووفاء بالعهد الذي عاهدناك عليه ، وعقد البيع الذي التزمناه ، وقد تضمن شروطاً : ومنها : { التائبون العابدون الحامدون } .

قال تعالى : { إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم حقاً في التوراة والإنجيل والقرءان ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم }.

ثم ذكر سبحانه بعد عقد شرائه وبيعهم له سبحانه – كر شروطاً ، وكل شرط يتضمن عدة مطالب وواجبات ، وعدة التزامات ومسؤوليات ، فقال سبحانه : { التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الأمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين } .

أي : بشر المؤمنين الذين اشترى الله تعالى منهم أنفسهم وأموالهم ، وصدقوا في بيعهم ، وأدوا ما شرط عليهم من التحقق بتلك الصفات ، فلهم من الله تعالى البشارة العظمى .

اللهم اجعلنا من الموفين بعهدهم ، برحمتك وفضلك وإحسانك وكرمك – اللهم آمين .

{ إياك نعبد }

لأنك يا رب خلقتنا لعبادك ، قال تعالى : { وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون } .

وبعبادتنا لك عزنا وشرفنا ، وجاهنا وكرماتنا في الدارين ، لأنك خلقتنا لتكرمنا بعبادتك وتشرفنا بها .

فبعبادتنا لك ننال قربك وحبك ، وتدخلنا جنتك { في مقعد صدق عند مليك مقتدر } ونظفر بكل خير في الدنيا والآخرة .

وبعبادتنا لك نحفظ علينا كرامتنا الآدمية والإنسانية التي شرفتنا بها ، فإن المقصود من الشيء إذا لم يتحقق فيه ذلك المقصود ؛ فقد خرج ذلك الشيء عن حقيقته ، ولو بقيت عليه هيئته وصورته .

ألا ترى السيارة فإنها صنعت لتسير بالركاب – لأنها سيارة فعلاً – فإذا تعطلت أو تحطمت ولم تسر فإنها والصخرة سواء في الحقيقة – وإن اختلفنا في الصورة- فلا يقال لها حقيقة سيارة ، لأنها لم تعد تسير فعلاً ، وإن كانت صورتها وهيئتها سيارة، وإن كان اسمها بالظاهر سيارة .

وهكذا الفرس يكر ويفر، فإذا لم يكن كذلك فهو في الحقيقة حمار، وإن كان اسمه فرساً لصورته وهيئته الظاهرة .

وهكذا الإنسان خلقه الله تعالى وصنعه للعبادة ، فالإنسان الحقيقي هو الذي اتصف بالإنسانية الإيمانية، ولم تغلب عليه البهيمية الحيوانية ، وهذا إنما يكون إذا تحقق بالعبادة لله تعالى على الوجه الذي شرعه الله تعالى له، وإذا لم يتحقق بتعاليم الله تعالى وعباداته ، فإن صورته إنسان ، لكنه في الحقيقة بهيمة حيوان.

قال تعالى – في الكفار-:{ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً}.

وإنما كانوا أضل من البهائم لأن كل حيوان وبهيمة لها حدها في وصفها البهيمي الحيواني ، فالثعلب له صفته في المكر وخاصته الثعلبية، ولكنه لا يوصف بصفة الحمار مثلاً، ولا بالعكس ، وكل حيوان فيه نوع من البهيمية والحيوانية لا يتعداها ، أما الإنسان فإنه إن لم يتمسك بعبادة الله تعالى على الوجه الذي شرعه الله تعالى ، فإنه تجتمع فيه جميع الصفات الذميمة الحيوانية والبهيمية، فتراه من جهة احتياله كالثعلب، ومن جهة بلادته كالحمار، ومن جهة قلة حيائه ديوثاً كالخنزير مثلاً .

قال تعالى :{ إن شر الدواب عند الله الذين كفروا } الآية.

والله تعالى إنما يذكر الحق ، ويبين الحقيقة ، فهم إنسان بالصورة والهيئة؛ لا بالحقيقة والمعنى .

وقال تعالى :{ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم. ثم رددناه أسفل سافلين. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون } أي: أجر دائم ، غير مقطوع.

فالإنسان الكافر رده الله تعالى بسبب كفره أسفل سافلين ، وأخرجه عن دائرة الإنسانية القيمة .

ويدلك على أن المراد بالإنسان الذي رده الله تعالى أسفل سافلين هو الإنسان الكافر ، يدلك على ذلك أن الله تعالى قال بعد ذلك :{ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات }، إذاً فهؤلاء لم يردهم أسفل سافلين ، بل رفعهم أعلى عليين ، لأنهم حافظوا على إنسانيتهم القويمة الكاملة ، بسبب تمسكهم بشريعة الله تعالى ، إيماناً به، وعبادة له سبحانه .

فإن للعبادات أسراراً وأنواراً وآثاراً:

1-فمن أسرارها : أنها بها تكون القرب من حضرة الرب ، كما قال سبحانه :{ واسجد واقترب} فبالسجود يتقرب العابد من المعبود.

وقال تعالى :{ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب } الآية.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم :[أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء].

وفي الحديث القدسي :[وما تقرب إلي عبدي بمثل ما افترضته عليه ....] الحديث.

2-وبالعبادة ينصبغ بها قلب العابد ، بل روحه، بل وجسمه بالأنوار الإلهية .

قال تعالى :{ صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون }.

3-وبالعبادة ينتقل العابد من العبدية العامة إلى العبدية الخاصة، التي ينال بها شرف الإضافة إليه سبحانه ، وبها تكريمه وتفضيله :

قال تعالى :{ قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلال }.

4-وبالعبادة تخليصه وحصانته :

قال تعالى :{ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان }.

5-وبها ينال البشائر :

قال تعالى :{ فبشر عباد . الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه }.

6-ولهم من الله تعالى الأمان :

قال تعالى :{ يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون }.

فهم العباد العباد ، ومن ثم قال بعضهم رضي الله عنه في قوله تعالى :{ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً } وأمثال هذه الآيات قال: العباد هنا جمع عابد ، كما أن صحاب جمع صاحب، نعم إن شرف العبا على حسب شرف عباداتهم ، وإن أشرف العباد والعباد وأفضلهم وأكرمهم هو السيد الأكرم ، والرسول الأعظم ، سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، الذي قال الله تعالى فيه :{ الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب } الآية.

7-وبالعبادة يطعم العبد طعم الإيمان وحلاوته :

قال صلى الله عليه وآله وسلم :[ثلاث من فعلهن فقد طعم طعم الإيمان : من عبد الله وحده وعلم أنه لا إله إلا الله ، وأعطى زكاة ماله طيبة بها نفسه ، ولم يعط الهرمة[٣٧] ولا الدرنة[٣٨] ولا المريضة ولا الشرط[٣٩] اللئيمة ، ولكن من وسط أموالكم ، فإن الله تعالى لم يسألكم خيره ولم يأمركم بشره].

وقد فصلت الكلام على بعض أسرار العبادات وأنواعها في كتابي (التقرب إلى الله تعالى) فارجع إليه تجد ما يسرك .

---

[٣٧] الكبيرة السن.
[٣٨] الدرنة: الجرباء، وأصله من الدرن وهو الوسخ.
[٣٩] قال في (النهاية) : الشرط اللئيمة : أي: رذال المال، وقيل صغاره وشراره .اه.

{إياك نعبد وإياك نستعين}

أي: لا نستعين إلا بك ، فإنه لا معين غيرك، إذ الكل إليك، فأنت الغني المطلق بالذات والصفات، وما سواك كلهم فقراء إليك بالذات والصفات .

قال تعالى :{ يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد }.

فالعباد كلهم فقراء إلى الله تعالى ، في وجود ذاتهم ، وبقائهم، وحياتهم، وغذائهم، ومائهم، وجميع ذراتهم، وجميع أمورهم ، والله تعالى هو وحده الرب الغني على الإطلاق ، فها نخن نطلب منك ، ونسألك يا ربنا أن تعيننا على جميع أمورنا الدينية، وما أبحته لنا من أمور دنيانا التي فيها معاشنا فأعنا.

وهذا موقف الاستعانة ، يشمل الإعانة على أداء الأمور الدينية ، كما دل على ذلك حديث معاذ رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :{ يا معاذ إني لأحبك ، أوصيك يا معاذ أن لا تدعن – أي: لا تتركن – في دبر كل صلاة - بعد كل صلاة- أن تقول : اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك] رواه أحمد وأبو داود وغيرهما .

وهذا الحديث فيه جوامع الدعوات التي فيها مجامع الخيرات :

1-فيه سؤال الإعانة على ذكره سبحانه، ويدخل تحته الذكر اللساني والجناني ، والذكر النفسي والملئي، والذكر القولي والقلبي، وجميع أنواع الذكر لله تعالى : القرآن الكريم، والتسبيح، والتحميد، والتكبير، والتهليل، والصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وغير ذلك .

2-فيه سؤال الإعانة على الشكر ، ويدخل فيه : الشكر القولي ، وهو الحمد والثناء عليه سبحانه ، والشكر العملي قال تعالى :{ اعملوا ءال شكراً } وهذا يكون بالأعمال الصالحة ، التي شرعها الله تعالى ، والشكر القلبي وهو الاعتقاد الجازم والعلم القاطع بأنه ما بك من نعمة فمن الله تعالى وحده قال تعالى :{ وما بكم من نعمة فمن الله } الآية.

3-وفيه سؤال الإعانة على حسن العبادة ، وذلك – أي: حسن العبادة- هو تحقق العابد حال عبادته بالحضور القلبي ، بحيث لا يكون حال العبادة

غافلاً أو لاهياً بل حاضر القلب، ملا حظاً ما يقول ويعمل، وبالمواظبة على ذلك يرتقي إلى مقام المراقبة لله تعالى ، ثم المشاهدة وهي أعلى، وكل من المراقبة والمشاهدة لها أنواع على حسب رتبة المراقب والمشاهد، ويسمى هذا مقام الإحسان ، المذكور في حديث جبريل عليه السلام حين سأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن الإسلام ثم عن الإيمان ثم قال :[فأخبرني عن الإحسان]؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم :[هو أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ....].

فالأول مشاهدة، والثاني مراقبة.

وفي (الحلية) وغيرها، عن زيد بن أرقم رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال له :[اعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، واحسب نفسك مع الموتى ، واتق دعوة المظلوم فإنها مستجابة].

وتفصيل الكلام على مقام الإحسان تجده في كتاب (الصعود) وكتاب (التقرب) فارجع إليهما .

{ وإياك نستعين }

وهذا يشمل الإعانة على ما ينفع العبد من الأمور الدنيوية ، كما دل عليه الحديث ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال :[المؤمن القوي خير وأحب إلى الله تعالى من المؤمن الضعيف – وفي كل خير ، احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ، ولا تعجز ، وإن

أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا ، ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل – فإن لو تفتح عمل الشيطان] .

فليبذل المؤمن جهده على ما ينفعه من أمور دنياه ، ولا يقعده الكسل ولا يعجز عن العمل ، وليستعن بالله تعالى على ذلك ، فإن أصابه شيء : بأن خسر ، أو فشل ، أو لم يتحقق غرضه الذي سعى إليه ، فلا يرجع على نفسه باللوم واللو ، بل يقول :[قدر الله وما شاء فعل] ، فيرد أمره إلى الله تعالى ، فإن الله تعالى لا بد وأن يجبر كسره ، ويخرجه من تلك المصيبة .

{ وإياك نستعين }

يشمل الإعانة على الأعداء :

روى أصحاب (السنن) عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول :[اللهم أعني ولا تعن علي ، وانصرني ولا تنصر علي ، وامكر لي ولا تمكر علي ، واهدني ويسر لي الهدى ، وانصرني على من بغى علي ، رب اجعلني لك ذكاراً ، لك شكاراً ، لك رهاباً ، مطواعاً إليك مخبتاً ، أواهاً منيباً .

رب تقبل توبتي ، واهد قلبي ، وسدد لساني ، واغسل حوبتي ، وأجب دعوتي ، وثبت حجتي ، واسلل سخيمة صدري] أي : نق قلبي من الحقد والحسد والغل ؛ وسائر أمراض القلب ، وهذا من التعليم للأمة ، لأن قلبه الشريف صلى الله عليه وآله وسلم هو القلب الطيب التقي ، السليم النقي من جميع ما هنالك .

{ إياك نستعين }

في هذا موقف اعتراف العبد وإقراره بعجزه ، وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلي الكبير ، وأنه لا معينة على الحقيقة إلا الله تعالى ، فهو سبحانه وحده المعين الذي لا يحتاج إلى معين ، وأن كل ما سواه سبحانه فهو العاجز المستعين به .

وفي الحديث : [اللهم لك الحمد ، وإليك المشتكى ، وأنت المستعان ، وبك المستغاث ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم] [٤٠] .

وروى الترمذي وغيره ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كنت خلف النبي صلى الله عليه وآله وسلم يوماً فقال لي : [يا غلام : إني أعلمك كلمات :

احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله .

واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك : وإن اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف].

فيجب على العبد أن يرجع في أموره كلها إلى الله تعالى ، فيسأله حاجاته كلها ، لأنه لا يملك قضاء حاجات العبد إلا الله تعالى ، فهو سبحانه وحده، هو الغني المطلق الذاتي ، وجميع العباد فقراء إليه فقراً ذاتياً ، محتاجون إليه في كل شيء ؛ وهو سبحانه وحده الغني على كل شيء .

قال تعالى : { يأيها الناس أنتم الفقرآء إلى الله والله ه الغني الحميد } .

وقال تعالى :{ وسئلوا الله من فضله } . وروى الترمذي ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :[سلوا الله من فضله ، فإن الله يحب أن ،يسأل ، وأفضل العبادة انتظار الفرج].

اللهم إنا نسألك من فضلك العظيم .

وروى الترمذي ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال:[من لم يسأل الله يغضب عليه].

اللهم إنا نسألك التوفيق لمحابك من الأعمال ، وحسن الظن بك ، وصدق التوكل عليك، ونسألك العفو والعافية في الدنيا والآخرة .

---

[٤٠] رواه الطبراني وغيره .

وروى الترمذي ، وابن حبان ، عن أنس رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال:[ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها ، حتى يسأله شسع نعله إذا انقطع].

وفي رواية :[ليسأل أحدكم ره حاجته ، حتى يسأله الملح، وحتى يسأله شسعه] أي: زمام النعل ورباطه الذي يشد به .

وهكذا الاستعانة : فإن العباد كلهم عاجزون محتاجون إلى عونه سبحانه ، لا حول لهم عن حال إلى حال؛ ولا قوة لهم على فعل أمر من الأمور ؛ إلا بالله العلي العظيم .

ولكن جميع ذلك لا ينافي أنه سبحانه جعل لقضائه حاجات العباد أسباباً ووسائط ، وجعل لإعانته لمن استعان به أسباباً ، ووسائط، ووسائل، فالله تعالى هو المعين على الحقيقة ، ولا معين غيره ، ولكن قد جعل عونه لك منوطاً بواسطة ، وهذه الواسطة من الذي أعانها على عونك ؟

نعم إنما هو الله تعالى وحده لا شريك له .

فأنت قد تحتاج أن تحمل الحمل الثقيل على الدابة فتعجز ، فتسأل الله تعالى الإعانة ، فقد يجعل فيك قوة على ذلك ، وقد يبعث إليك من يعينك على ذلك.

وفي الحديث :[وتعين الرجل في دابته؛ فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة][٤١] .

فالذي أعان على الحقيقة هو الله تعالى ،والرجل الذي أعانك هو واسطة لا تنكر، وسبب في عون الله تعالى ، فلا تنكر المسبب، ولا تعطل السبب، ولا تنكر الوسائط التي جعلها الله تعالى واسطة- وهذا أمر ظاهر في أمور كثيرة ، فتجد أن الله تعالى أضافها ونسبها إليه سبحانه ، وتارة تجد أن الله تعالى نسبها وأضافها إلى السبب والواسطة .

[٤١] متفق عليه.

فهناك الإحياء : قال تعالى :{ إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير } فهو سبحانه المحيي والمميت على الحقيقة .

وقال تعالى :{ ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً } فنسب الإحياء إلى الواسطة، الذي هو سبب في حياة تلك النفس .

ومن ذلك الهداية : فإن الهادي الموفق هو الله تعالى وحده :

قال تعالى :{ من يهد الله فهو المهتد} الآية، ومع ذلك فقد جعل لهدايته واسطة، كما دل عليه الحديث في خطبته صلى الله عليه وآله وسلك في الأنصار وفيها :[يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي، وعالة – أي: فقراء لا مال عندكم – فأغناكم الله بي]، وكانوا كلما قال صلى الله عليه وآله وسلم شيئاً قالوا : (الله ورسوله أمن) الحديث[٤٢] .

فالله تعالى هو الذي هداهم ، لكن بواسطة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، وجمعهم وألفهم به مع أنه قال سبحانه :{ لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم } أي: بواسطتك ، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم :[فألفكم الله بي] فلا تنكر السبب والواسطة .

وهكذا التوفيه : قال تعالى :{ الله يتوفى الأنفس حين موتها } الآية، فهو سبحانه يتوفى الأنفس – أي: يقبض الأرواح – ومع ذلك جعل لذلك واسطة، وهو ملك الموت، قال تعالى :{ قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم } أي: وكله الله تعالى بكم .

وهكذا الرزق : قال تعالى :{ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين }، فهو الرزاق على الحقيقة لا غيره، قال تعالى :{ قل من يرزقكم من السماوات والأرض قل الله ؤ الآية من سورة سبأ.

وقال تعالى :{ وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولاً معروفاً }.

---

[٤٢] متفق عليه، واللفظ للبخاري.

فنسب الرزق للواسطة ، فقال:{ فارزقوهم منه }.

وهكذا الإعانة : فهو سبحانه وحده المعين على الحقيقة ؛ قال تعالى – معلماً لعباده أن يقولوا - :{ إياك نعبد وإياك نستعين } أي: لا نستعين إلا بك ، لأنه لا معين غيرك ، ومع ذلك قال :{ وتعاونوا على البر والتقوى } فأمر عباده أن يعين بعضهم بعضاً على البر والتقوى ، فأضاف العون إليهم ،لأنهم واسطة في عون الله تعالى لهم .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم :[والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه ...] الحديث كما في (صحيح) مسلم.

وفي الحديث – كما مر -:{ وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة][٤٣] .

وقال تعالى:{ وأما السائل فلا تنهر } وسواء في ذلك سائل المال ، أو العلم ، وغيرهما مما يحتاجه السائل .

وقال تعالى :{ فسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون } فهذا لا يتنافى ولا يناقض قوله صلى الله عليه وآله وسلم :[وإذا سألت فاسأل الله] الحديث كما تقدم .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم :[سلوني ما شئتم ، فما تسئلوني عن شيء إلا بينته لكم] الحديث متفق عليه .

وفي الحديث عن ربيعة بن كعب الأسلمي قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :[يا ربيعة سلني أعطك].

قال : أسألك مرافقتك في الجنة .

قال صلى الله عليه وآله وسلم :[أو غير ذلك] .

قال ربيعة : بل هو ذاك .

---

[٤٣] متفق عليه.

قال صلى الله عليه وآله وسلم : [فأعني على نفسك بكثرة السجود] الحديث .

وهكذا الإغاثة : { إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم } ومع ذلك تنسب الإغاثة للعبد الذي هو واسطة :

قال تعالى :{ فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه } ، فقد أغاث موسى الذي أغاثه .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم كما في حديث الشفاعة الذي رواه الخمسة وغيرهم ، فقد جاء في رواية البخاري : عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : [ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة ليس في وجهه مزعة – أي : قطعة – لحم] .

وها جزاء من يسأل وهو غير محتاج ، بل عنده ما يكفيه .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : [إن الشمس تدنو يوم القيامة حتى يبلغ العرق نصف الأذن من شدة أهوال الموقف وطوله] .

قال صلى الله عليه وآله وسلم : [بينما كذلك هم استغاثوا بآدم ، ثم بموسى ، ثم بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم فيشفع ، - أي : ليقضى بين الخلق – فيمشي حتى يأخذ بحلقة الباب – أي : باب الجنة – فيومئذ يبعثه الله مقاماً محموداً ، يحمده أهل الجمع كلهم] كما في البخاري من كتاب الزكاة .

فانظر يا أخي لقد استغاث الناس – أهل الموقف كلهم – بسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فأغاثهم ؛ بأن شفع عند الله تعالى فيهم ، حتى يخلصوا من أهوال الموقف ، وينتهي الأمر إلى فصل القضاء بينهم.

وقد اقتصر الراوي هنا ذكر الرسل الذين يمر عليهم أهل الوقف، فإنهم كما جاء في أحاديث الشفاعة : يأتون آدم، ثم نوحاً، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، ثم يأتون السيد الأكرم محمداً صلى الله عليه وآله وسلم صلوات الله تعالى وسلامه عليه وعليهم ، ولم يقل أحد من الرسل إنه لا حاجة بكم إلى من يغيثكم ، أو يشفع أو يكون وسيلتكم إلى ربكم، بل أقروهم على سؤالهم

الإغاثة والشفاعة ، ولكن أحالوا الأمر لمن خصه الله تعالى بمقام الشفاعة العامة صلى الله عليه وآله وسلم .

وجاء في الحديث، عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :[إياكم والجلوس في الطرقات].

قالوا: يا رسول الله ما لنا بد من مجالسنا . نتحدث فيها .

فقال:[إذا أتيتم إلا المجلس ، فأعطوا الطريق حقه].

قالوا: وما حقه يا رسول الله ؟

قال:[غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر][٤٤] .

وفي رواية :[وتغيثوا الملهوف ، وتهدوا الضال].

ومن ذلك النصر : فإن النصر هو من عند الله تعالى :

قال تعالى :{ وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم }.

وقد أضاف النصر إلى المخلوق فقال تعالى :{ وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق }.

وروى الترمذي وغيره، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :[انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً].

فقيل: يا رسول الله أنصره إذا كان مظلوماً ، فكيف أنصره إذا كان ظالماً ؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم :[تحجزه عن الظلم – أي: تمنعه عن الظلم – فإن ذلك نصره] يعني : أنك بذلك تنصره على شيطانه ونفسه بمنعك له عن الظلم .

وعن السيدة ميمونة رضي الله عنها – أم المؤمنين- قالت : بات عندي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليلة، فقام يتوضأ للصلاة، فسمعته

---

[٤٤] الحديث رواه الإمام احمد والبخاري ومسلم .

يقول في متوضئه – أي: مكان وضوئه صلى الله عليه وآله وسلم -:[لبيك ، لبيك، لبيك، -ثلاثاً- نصرت ، نصرت، نصرت].

فلما فرغ ، قلت: يا رسول الله ، سمعتك تقول في متوضئك :[لبيك لبيك لبيك ، نصرت نصرت نصرت] كأنك تكلم إنساناً فهل كان معك أحد؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم :[هذا راجز – أي: شاعر – بني كعب يستصرخني – أي: يستغيث بي – ويزعم أن قريشاً أعانت عليهم بني بكر].

قالت ميمونة رضي الله عنها : فأقمنا ثلاثاً ، ثم صلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الصبح بالناس صبح اليوم الثالث ، فسمعت الراجز – أي: شاعر بني كعب – ينشد بعد فراغهم من الصلاة ، فيقول أمام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

يا رب إني ناشد محمداً

حلف[٤٥] أبنا وأبيه الأتلدا [٤٦]

إن قريشاً أخلفوك الموعدا

ونقضوا ميثاقك المؤكدا

وزعموا أن لست تدعو أحدا

فانصر هداك الله نصراً أبدا

وادع عباد الله يأتوا مددا

فيهم رسول الله قد تجردا[٤٧]

قالت السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها : لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم غضب مما كان من شأن بني كعب غضباً لم أره

---

[٤٥] مناصرة.
[٤٦] أي : الأقدم ، والتليد هو القديم.
[٤٧] أي: شمر عن ساعد الجد لحرب العدو.

غضبه منذ زمان ، وقال :[لا نصرني الله تعالى إن لم أنصر بني كعب] كما في رواية أبي يعلى بسند جيد ، وقد روى أصل الحديث الطبراني في (معجمه الصغير) وابن إسحاق وغيرهم من أصحاب السير .

قال الحافظ الزرقاني رحمه الله تعالى : وفي إخباره صلى الله عليه و آله وسلم بما قاله الراجز قبل قدومه ؛ فيه علم من أعلام النبوة باهر ، فإما أنه أعلم بذلك بالوحي ، وعلم ما يصوره الراجز في نفسه ، أو كان الراجز يكلم به أصحابه فأجابه صلى الله عليه وآله وسلم بذلك، أو أنه كان يرتجز في سفره وأسمعه الله تعالى كلامه قبل قدومه بثلاث، فقد روى أبو نعيم مرفوعاً :[إني لأسمع أطيط السماء، وما تلام أن تئط ...] الحديث اه.

فكان صلى الله عليه وآله وسلم يسمع تسبيح السماء، وهذه المناشدة كانت سبباً مهيجاً إلى التعجل في فتح مكة المكرمة .

وقد قال تعالى :{ ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد . والنخل باسقات لها طلع نضيد. رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج }.

فاعتبر وفكر في وقله سبحانه :{ فأنبتنا به} فهو سبحانه الذي أنبت الزرع ، ولكن بسبب الماء الذي هو سبحانه جعله سبباً ، وانظر في قوله تعالى :{ وأحيينا به بلدة ميتاً } فهو سبحانه المحيي وحده كما قال :{ اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون }، ولكن جعل الماء سبباً في الحياة ، فلا تنكر الأسباب، فإن الذي جعلها أسباباً هو الله تعالى رب الأرباب ، ولا تنكر الوسائل ولا الوسائط التي جعلها الله تعالى وسائل ووسائط .

والله تعالى هو الشافي وحده، ولا شفاء إلا شفاؤه سبحانه ، ولكن قد يجعل الشفاء منوطاً بأسباب :

قال تعالى في العسل:{ فيه شفاء للناس}.

وقال تعالى :{ وننزل من السماء ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين }.

وهناك أسباب من الأدوية المركبة والعقاقير :

روى مسلم وغيره ، عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :[إن لكل داء دواء ، فإذا أصيب دواء الداء برئ بإذن الله تعالى].

وروى البخاري وغيره ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :[ما أنزل الله تعالى من داء إلا وأنزل له دواء].

والبحث في هذا الموضوع واسع ، وليس موضع بسطه ، وإنما ذكرت جملة من الأمور، لعل الله تعالى ينفع بها، ويزيل بها شبهة من يشتبه عليه هذا الموضوع .

{ إياك نعبد وإياك نستعين }

والحكمة في تقديم العبادة على الاستعانة لها وجوه:

أولاً: هو أن العبادة هي حق لله تعالى على عباده ، وأما الاستعانة فهي سؤالهم منه الإعانة، وهي تعود إليهم، وإن حق الله تعالى وما هو لله تعالى فإنه مقدم على ما هو للعبد، كما يدل على ذلك الحديث الذي رواه مسلم ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال:[يقول الله تعالى : قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فنصفها لي، ونصفها لعبدي ، ولعبدي ما سأل.

فإذا قال:{ الحمد لله رب العالمين} قال الله تعالى : حمدني عبدي ، وإذا قال :{ الرحمن الرحيم} قال الله تعالى أثنى علي عبدي ، فإذا قال :{ مالك يوم الدين } قال الله تعالى مجدني عبدي، وإذا قال :{ إياك نعبد وإياك نستعين } قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل ، فإذا قال :{ اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين } قال الله تعالى : هذا لعبدي ولعبدي ما سأل].

ثانياً : هي العبادة تشمل على أعمال صالحة ، وأقوال طيبة ،يتقرب العبد غلى الله تعالى ، ويسترضيه ، فيكون من باب تقديم التوسل إلى الله تعالى بالأعمال الصالحة ، والأقوال الطيبة ، على سؤال الاستعانة والدعاء بها ،

وذلك يكون أرجى في قبول الدعاء ، وإجابة السؤال ، وهذا له نظائر وأشباه كثيرة في الشرع ، فإن الدعاء عقب العبادة مجاب ، وإليه الإشارة في الحديث معاذ رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال له : [والله إن لأحبك ، فلا تنس] وفي رواية : [أوصيك أن تقول دبر كل صلاة : اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك] .

ودعاء الصائم عند فطره مجاب ؛ لأنه بعد عبادة .

ثالثاً : لما وقف العبد موقف العابد ، والمقر لله تعالى بأنه هو الإله المعبود وحده ، فقال :{ إياك نعبد } أي : نعبدك اعتقاداً وعملاً وقولاً ، ولكن ذلك كله إنما هو بعونك يا رب ، وتفضلك بالتوفيق ، والعون والتيسير ، فلو لا فضلك بالتوفيق والعون والتيسير ما عبدتك ، فمنك الفضل علي ، و لك المنة أولاً وآخراً في الإعانة على العبادة وقبولها ، والثواب عليها .

رابعاً : أن العبادة هي قيام العبد بتكاليف الشريعة التي شرعها الله تعالى ، وفيها الأوامر والمناهي ، وهذه هي الأمانة الكبرى التي التزمها الإنسان وحملها ، يوم عرضت على السماوات والأرض والجبال فأبين يحملنها ، وأشفقت منها لثقلها ، وحملها الإنسان ، كما بينت ذلك مفصلاً في كتاب (هدي القرآن إلى معرفة الأكوان) .

قال تعالى : { إنا عرضنا على السماوات والأرض فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً } .

فالإنسان الذي حمل تلك الأمانة ، واستعان بالله تعالى على ذلك : أعانه الله تعالى ، وأدى حق العبادة وموجبها ، فإنه خرج عن الظلم والجهل ، والكافر الذي لم يفعل ذلك كان ظلوماً جهولاً .

خامساً : إن الله تعالى قال : { وما خلقت الجن والإنس غلا ليعبدون } أي : لأن في عبادتهم له شرفهم ، وكرامتهم ، وعزتهم ، ورفعة شأنهم في الدنيا والآخرة ، فقام العبد المؤمن يقر بذلك ، ويشهد الله تعالى على ذلك ، ويناجيه في الصلاة فيقول : { إياك نستعين } أي : تحقيقاً للأصل الذي خلقتنا من أجله ، وتطبيقاً للمراد المحبوب ، الذي أردته منا في خلقك لنا ،

فها نحن عبادك نعبد : حالاً ومالاً ، ونسألك أن تعيننا على ذلك حتى آخر لحظة ، قال تعالى : { واعبد ربك حتى يأتيك اليقين } والمراد باليقين : الموت ، كما قال تعالى عن عيسى عليه السلام : { وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً } ، وبذلك تتم النعمة ، وتحسن الخاتمة ، ولذلك فإن الله تعالى أمر العبد أن يقول بعد : { إياك نعبد } يقول : { وإياك نستعين } اللهم آمين .

{ اهدنا الصراط المستقيم . }

أي: وفقنا للسلوك على الصراط المستقيم ، الذي هدانا إليه رسولك سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ودعانا إليه حيث قلت في كتابك مخاطباً له:{ وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم . صراط الله } وقلت :{ وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم }.

وهذا الصراط هو دين الإسلام ، الذي جاء يدعو إليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، الجامع للعقائد الإيمانية ، والأوامر العملية، وهي العبادات القائمة على أساس الاعتقاد ، والاعتراف بالعبودية لرب العالمين ، فإن من اعتقد واعترف أنه عبد مخلوق بعد أن كان معدوماً ؛ وجب عليه أن يعبد ربه وخالقه الذي أوجده، من بابا القيام بحق الله تعالى عليه، كما ورد في الحديث :[أتدري ما حق الله على عباده]؟ أي: ما حق الله تعالى الذي لا رب غيره على عباده، الذين هم لا محالة عباده، بلا شك ولا ريب ، فإنهم عباده، وليسوا أرباب أنفسهم، ولا رب لهم غيره سبحانه .

قلت : الله ورسوله أعلم .

قال:[حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ...][٤٨] الحديث .

والدليل على أن المراد بالصراط هنا هو الإسلام – أي: دين الإسلام- ما رواه الإمام أحمد وغيره ، عن النواس بن سمعان رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال:[ضرب الله تعالى مثلاً ، صراطاً مستقيماً ، وعلى جنبتي الصراط – أي: جانبي الصراط- سوران- تثنية

---

[٤٨] متقف عليه.

سور وهو الحائط المنيع – فيهما أبواب مفتحة ، وعلى الأبواب ستور مرخاة ، وعلى باب الصراط داع يقول : يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعاً ، ولا تتعوجوا- أي: لا تنحرفوا عن الصراط – وداع يدعو من فوق –أي: الصراط – فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال: ويحك لا تفتحه فإنك إن فتحته تلجه] أي: تدخل فيه .

قال صلى الله عليه وآله وسلم :[فالصراط الإسلام ، والسوران حدود الله تعالى ، والأبواب المفتحة محارم الله تعالى ، وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله تعالى ، والداعي من فوقه واعظ الله تعالى في قلب كل مسلم] أي: وهو لمة الملك الذي يدله على الخير ، كما جاء في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :[إن للشيطان لمة بابن آدم ، وللملك لمة، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد من ذلك – أي: من إيعاد الخير وتصديق الحق- فليعلم أنه من الله تعالى ، من وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان] ثم قرأ :{ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً والله واسع عليم }.

واللمة هي : العارض والخطرة التي تقع في القلب ، وتمر بسرعة، فهناك خطرات وعوارض للقلب ملكية وهي : التي تدلك على الخير وتبعدك عن الوساوس والشر، وهناك خطرات شيطانية ترد على القلب فاستعذ بالله منها .

وقال بعض الغارفين : واعظ الله تعالى في قلب كل مسلم – الوارد ذكره في هذا الحدث ونحوه- هو الواعظ الإلهي ، بسبب نور الإيمان الذي في قلب المسلم حقاً ، وهذا النور هو من عند الله تعالى ، ومن شأنه أن تكون فيه البصائر والبشائر ، والإلهامات الإلهية، وهذا النور هو المذكور في قوله تعالى :{ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله} الآية.

وهذا النور هو المذكور في الحديث المروي عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وابن مسعود رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم سئل عن هذه الآية :{ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام } قالوا: يا رسول الله كيف يشرح صدره؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم :[نور يقذفه في القلب – أي: يقذفه الله في القلب – فيشرح له الصدر وينفسح].

قالوا: وهل لذلك من أمارة – أي: علامة- تعرف ؟

فقال:[نعم].

قالوا: وما هي ؟

قال صلى الله عليه وآله وسلم :[الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والاستعداد للموت فبل نزول الموت] رواه عبد الرزاق ، وابن جرير ، واين أبي حاتم وغيرهم بروايات متعددة .

وقوله تعالى :{ اهدنا} فيه أن موقف العبد ، موقف الاستهداء من الله تعالى ، وأنه إن لم يهده فهو ضال عن طريق الحق ، الموصل إلى سعادة الدنيا والآخرة ، كما جاء في الحديث القدسي:[يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم].

وهذه الهداية التي علمنا الله تعالى إياها هي هداية التوفيق لسلوك الصراط المستقيم و فإن الهداية في القرآن والسنة ، تأتي على معان يهمنا أن نذكر منها ما يلي :

النوع الأول: هداية الله تعالى لجميع المخلوقات لما فيه صلاح وجودها ، ومصالح عيشها في دنياها ؛ وهي علامة للإنس ، والجن ، والطير ، والحيوانات ، وجميع ما هنالك ، وهذه الهداية المذكورة في قوله تعالى : {قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى } المعنى : أنه سبحانه أعطى كل شيء أبرزه لعالم الخلق الإيجادي ، أعطاه وجوده الكوني اللائق به ؛ من حيث حقيقته الوجودية ، وصورته الكونية المناسبة له ، كما هو مقتضى الحكمة الإلهية ، من حيث نوعه ، وكمه ، وكيفه ، وزمانه ،

ومكانه ، وجميع شؤونه ، وحالاته في كل شيء ، أحسن الله تعالى خلقه كما قال تعالى : { الذي أحسن كل شيء خلقه } ، وكل شيء أتقن الله تعالى صنعه كما قال سبحانه : { صنع الله الذي أتقن كل شيء } فكل شيء هو حسن الخلق ، ومتقن الصنع بالنسبة لنوعه ، فالحمار بالنسبة لكونه حماراً هكذا ينبغي أن يكون ، والكلب بالنسبة لنوعه وهو الحيوان الكلبي هكذا أن يكون ، وهلم جراً ، والله تعالى أعطاه ذلك كله على حسب ما يليق به ، بمقتضى علمه سبحانه السابق القديم ، الذي لا أول له ، المحيط بكل شيء ، وحسب حكمته الشامل لكل شيء – والله تعالى عليم حكيم .

وبقدرته التي لا يعجزها شيء أوجد ذلك كله ، ثم هدى ذلك الشيء لما فيه صلاح وجوده وبقائه ، وحياته ، وهداه لمعرفته بربه خالقه ورازقه ، وهداه لمعرفة معاشه وغذائه، ومطعمه ومشربه ، وهداه لمعرفة ما يضره وما ينفعه من المأكولات والمشروبات ، وهداه لمعرفة من يأتلف معه ، ومن يحذر من شره .

فترى العصفور مثلاً يأتلف مع بني نوعه ونوع الحمام ، ولكنه يفرمن الغراب ونحوه من سباع الطيور.

وهكذا هدى سبحانه جميع المخلوقات إلى ما فيه نظامها وانتظامها : قال تعالى :{ وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم }.

وقد تكلمت بعض الكلام علة هذه الآية في كتاب (هدي القرآن إلى معرفة العوالم والتفكر في الأكوان) فارجع إليه .

النوع الثاني من الهداية: هداية البيان والدلالة على كل خير ، وفيها التحذير من كل شر، وهذه هداية المكلفين عامة إلى معرفة الحق من الضلال، وبيان ما فيه الخير لهم، وما يعود عليهم بالشر والفساد، وبيان ما ينفعهم، ويصلح أمورهم الخاصة والعامة؛ في الدنيا والآخرة، جماعات وفرادى .

وهذه الهداية الإلهية هي التي أوجبها الله تعالى على نفسه ، رحمة بعباده بواسطة الرسل صلوات الله تعالى عليهم- وهي وظيفتهم في الدنيا ويوم

المعاد ، وبها يظهر اختيار المكلف: فإما أن يختار الإيمان الثابت بالبينات والبرهان ، الذي جاء به هذا الهدي البياني ، وإما أن يختار الكفر – وهو : ستر الحق بعد ما ظهر له بالهدى والبينات – وبذلك يكون من أهل الردى .

وعلى هذا الاختبار الذي يظهر فيه الاختيار يترتب الثواب : إن اختار واستحب الإيمان والهدى ، ويترتب عليه العقاب : إن اختار الكفر واستحب العمى على الهدى .

وهذه أمور أربعة تتعلق بهداية البيان والدلالة :

الأول: إن الله تعالى أوجبها على نفسه رحمة بعباده ، قال تعالى :{ إن علينا للهدى . وإن لنا للآخرة والأولى }، فقد أوجب على نفسه سبحانه أن يهدي العباد – أي: يدلهم على الحق ، ويبين طريق الحق وما يؤدي إليه من الفلاح ، وصلاح الدنيا والآخرة ، كما بين طريق الضلال وما يؤدي غليه من الشر والفساد و وهذا كما قال تعالى :{ وهديناه النجدين } أي: بينا له الطريقين الواضحين : طريق الخير وطريق الشر .

روى الطبراني ، عن أبي أمامة رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال:[يا أيها الناس إنما هما نجدان – أي: طريقان- نجد خير ، ونجد شر].

وروى ابن مردويه وابن أبي حاتم نحو ها مرفوعاً .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه، عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى :{ وهديناه النجدين } قال : سبيل الخير والشر.

ومثل ذلك جاء عن أمير المؤمنين سيدنا علي رضي الله عنه ، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أيضاً .

ومنذ أهبط الله تعالى بني آدم إلى الأرض ، تعهدهم بهذا الهدي البياني:

قال تعالى :{ قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون }.

الثاني: أن هذه الهداية الإلهية التي فيها البيان والدلالة على الحق، والخير والرشاد، والتحذير من الضلال والشر والفساد ، هي بواسطة الرسل صلوات الله عليهم، وبإنزال الكتب الإلهية .

قال تعالى :{ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان } الآية.

وقال تعالى لحبيبه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :{ وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم . صراط الله }.

وقال سبحانه مخبراً عن الخليل على نبينا وعليه أفضل الصلوات والتسليمات قوله لأبيه :{ فاتبعني أهدك صراطاً سوياً }.

وقال تعالى مخبراً عن الكليم عليه الصلاة والسلام – لما أرسله الله تعالى إلى فرعون أن يقول له :{ فقل هل لك إلى أن تزكى . وأهديك إلى ربك فتخشى }.

والمعنى : أدلك على الطريق الذي يوصلك إلى ربك فتخشاه .

وقال تعالى : { إنما أنت منذر ولكل قوم هاد } .

فجاءت الرسل صلوات الله عليهم يهدون العبادة إلى ربهم ، ويدولونهم على طريق الحق الموصل إلى الله تعالى ، وذلك بالبينات القطعية الذي جاؤوا بها ، كما قال سبحانه : { ألم يأتيكم نبوا الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم فلا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم } الآية .

وقال تعالى : { ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى قومهم فجاءهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقاً على نصر المؤمنين } الآية .

وقال تعالى : { وعاداً وثموداً وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين . وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا في الأرض وما كانوا سابقين . فكلاً أخذنا بذنبه } الآيات .

فما من رسول إلا وقد جاء قومه بالبينات – والبينات جمع بينة ، وهي : ما كانت حقاً ظاهرة في نفسها ، ومظهرة لحقية ما سيقت له .

والبينات الذي جاءت بها رسل كلها قطعية ، وهي تشمل الحجج العقلية ، والبراهين القاطعة ، كما قال تعالى : { وتلك حجتنا ءاتيناها على قومه } الآية .

وتشمل المعجزات المرئية المشهودة ، وبهذا تكوم الحجة على العباد .

فالبينات العلمية العقلية تثبت الحق وتدحض الباطل ، وتزيل الشبه والشكوك ، والبينات المرئية وهي المعجزات الخارقة للعادات فإنها تشهدك حقية ما جاءت به الرسل عياناً .

فكل رسول من الرسل صلوات الله تعالى عليهم أوتي من البينات ؛ وأنزل الله تعالى عليه من الآيات ؛ ما فيه الحجة على قومه ، بحيث تكون قاطعة دامغة لا تبقي ريبة لمرتاب ، ولا عذراً لمعتذر .

وقد أعطى الله تعالى سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم أنواع المعجزات ومجامع البينات ، لان رسالته عامة لجميع الأمم غلى يوم القيامة ، وفيها الحجج القاطعة على جميع الطبقات ، ولذلك سماه الله تعالى بالبينة :

فقال سبحانه : { لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة . رسول من الله } صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ، فهو البينة الجامع لكل بينة ، والذي جاء بكل بينة .

وإن أعظم معجزاته ، وأجمع بيناته ، هو هذا القرآن العظيم ، والكتاب المبين ، الباقي إلى يوم الدين ، بلاغاً صلى الله عليه وآله وسلم ، وحجة على جميع العالمين .

قال تعالى لحبيبه الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم : { قل الله شهيد بيني وبينكم وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ } الآية .

وروى ابن أبي شيبة ، وابن الضريس ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو شيخ عم محمد بن كعب القرظي : في معنى قول الله تعالى : { وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ } قال : من بلغه القرآن فكأنما رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم – أي : فبلغه - .

وفي لفظ آخر له : من بلغه القرآن حتى يفهمه ويعقله ؛ فكأنه عاين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكلمه . اه .

وأما أن هذا القرآن هو أعظم حجة بالغة باقية إلى يوم القيامة ،تشهد بصدق نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ورسالته ، فدليل ذلك هو الحديث الذي رواه البخاري ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه إلى الله تعالى إلي ،فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً] .

والمعنى : أن الله تعالى خصه بوحي القرآن العظيم المعجز لجميع العالمين ، الباقي حجة إلى يوم الدين على جميع المكلفين ، فأتباعه هم أكثر من جميع أتباع الرسل قلبه ، وقد بينت ذلك مفصلاً في كتاب : (هدي القرآن إلى حجة والبرهان) .

الثالث : إن هداية البيان والدلالة هي حجة الله تعالى على العباد في الدنيا ويوم المعاد .

قال تعالى : { رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً } .

فجاءت رسل الله تعالى يهدون العباد إلى طريق الحق ، والصلاح والفلاح والنجاح ، ويدولونهم على كل خير في الحال والمال ، ويحذرونهم من كل شر يعود عليهم في الحال والمال ، وكل ذلك قائم على البينات والأدلة القاطعة الساطعة ، حتى لا يبقى للعباد حجة فيما إذا خالفوا ، ولا يبقى لهم

عذر يعتذرون به ، كما جاء في الحديث الذي رواه مسلم غيره ، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

قال : [إنّه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدلّ أمته على خير ما يعلمه لهم ، وينذرهم شرّ ما يعلمه لهم، وإنّ أمتكم هذه جعل عافيتها في أولها ، وسيصيب آخرها بلاء وأمور تنكرونها ، فتجيء فتنة ، فيرقّق بعضها بعضاً ، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن : هذه مهلكتي ، ثم تنكشف ، ثم تجيء الفتنة فيقول المؤمن : هذه] – أي : مهلكتي - .

قال صلى الله عليه وآله وسلم : [فمن أحبّ أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة ، فلتأته منيّته وهو مؤمن بالله واليوم الآخر ، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يوتى إليه] .

فجاءت الرسل صلوات الله تعالى على نبينا وعليهم بهداية البيان والدلالة على كل خير عاجل وآجل ، والتحذير من كل شر عاجل وآجل ، مع البينات القاطعة ، كما قال تعالى : { لّيهلك من هلك عن بيّنة ويحيى من حيّ عن بيّنة وإنّ الله لسميع عليم } .

ولذلك قال سبحانه : { وما كنّا معذّبين حتى نبعث رسولاً } ، وقال تعالى : { ولو أنّا أهلكناهم بعذاب مّن قبله لقالوا ربّنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع ءايتك من قبل أن نّذلّ ونجزى } .

فهو سبحانه لا يعذب لا في الدنيا ولا في الآخرة من كفر وجحد ، حتى يبعث رسولاً : يقيم الحجة ، ويدل على الطريق النيّرة ، والمحجّة البيضاء .

فلم يعذب في الدنيا عذاب استئصال لمن كفر ؛ إلا بعدما أرسل فيهم رسولاً :

قال تعالى : { وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتهلك مساكنهم لم تسكن مّن بعدهم إلا قليلاً وكنّا نحن الوارثين . وما كان ربّك مهلك القرى حتّى يبعث في أمّها رسولاً يتلوا عليهم ءاياتنا وما كنّا مهلكي القرى إلاّ وأهلها ظالمون } .

فبيّن الله تعالى أنه لم يأخذ القرى بالعذاب فيهلكهم إلا بعد أن يبعث في أمّها – أي : عاصمتها ؛ وهي البلد الكبرى التي ترجع إليها القرى في مهام أمورها – رسولاً ، فيبلّغهم ، ويبلغ القرى المحيطة بها ، ويتلو عليهم آيات الله تعالى ، فيكفروا ويجحدوا ، فيستحقون العذاب ؛ لأنهم ظالمون لأنفسهم .

ولما كانت مكة المكرمة هي أم أمهات القرى كلها ، وعاصمة العواصم ، باعتبار أن البلاد ترجع إليها في محجّها وصلواتها ، كانت من الحكمة أن يبعث صاحب الرسالة العامّة لجميع البلاد منها .

قال تعالى : {وكذلك أوحينا إليك قرءاناً عربيّاً لّتنذر أمّ القرى ومن حولها } الآية .

فقوله تعالى :{ ومن حولها } يشمل جميع البلاد ، لأنّ مكة هي في منتصف المعمورة .

ثم إنّ قوله تعالى : { حتّى يبعث في أمّها رسولاً } ينبهك أيها العاقل إلى أنّ الرسل يختارهم الله تعالى من المدن المتحضرة ، والبلاد العامرة ، لا من البوادي المهجورة ، ولا من أطراف الحافات المغمورة ، بل يولدون في بلاد عامرة حاضرة و يبعثون منها .

كما أنّه سبحانه لا يعذب في الآخرة إلا بعد بعثة الرسل ، وإقامة البينات ، وبيان الآيات ، والإتيان بالحجج والمعجزات _ كما أخبر في الآية عن أهل النار : قال تعالى : { كلّما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتيكم نذير . قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذّبنا وقلنا ما نزّل الله من شيء إن انتم إلاّ في ضلال كبير} .

وقال تعالى : { وقال الّذين في النّار لخزنة جهنّم ادعوا ربّكم يخفّف عنّا يوماً من العذاب . قالوا أولم تك تأتيكم رسلكم بالبيّنات قالوا بلى } أي : قد جائتنا رسلنا بالبينات والأدلة وأقاموا الحجج { قالوا فادعوا وما دعوا الكافرين إلاّ في ضلال } .

وقال تعالى : { وأنيبوا إلى ربّكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثمّ لا تنصرون . واتّبعوا أحسن ما أنزل إليكم مّن ربّكم مّن قبل أن يأتيكم العذاب بغتةً وأنتم لا تشعرون . أن تقول نفس ياحسرتى على ما فرّطت في جنب الله وإن كنت لمن السّاخرين . أو تقول لو أنّ الله هداني لكنت من المتّقين . أو تقول حين ترى العذاب لو أنّ لي كرّة } – أي : رجعة إلى الدنيا – { فأكون من المحسنين . بلى قد جاءتك ءاياتي فكذّبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين } .

فردّ الله تعالى معاذيرهم ، وقول أحدهم : لو أن الله هداني – بيّن طريق الحق والسعادة وسبيل الفلاح – ردّ عليهم بقوله : { بلى قد جاءتك آياتي } يعني : أرسلت فيكم رسلاً ، فهدوكم إلى طريق الحق : وجاؤوكم بالآيات والبينات ، ودلوكم على كل خير ، وحذروكم من كل شر ، ولكن كنتم تسخرون منهم ، وتتكبرون عليهم ، وتستهزئون بهم .

كما قال سبحانه : { فلمّا جاءتهم رسلهم بالبيّنات فرحوا بما عندهم مّن العلم وحاق بهم مّا يستهزءون } .

فكانت الأمم الكافرة تفرح بعلومها الدنيوية ، وتسخر بما جاءت به الرسل من علوم الدين ، وتعاليم الشرعية التي فيما ضمان الحقوق ، وكمال العدل ، وسعادة الدنيا والآخرة ، فجائت شرائع الله تعالى بعلوم فيها عمارة الدنيا و الآخرة ،وسعادة الدنيا والآخرة ، ولكن الكفرة إنّما يريدون الدنيا ولا يريدون الآخرة – بل لا يؤمنون بالآخرة أصلاً .

ولو أنهم فكروا وعقلوا ، وتجردوا عن كبرهم ، واتباع أهوائهم وشهواتهم البهيمية المفرطة ، لو فعلوا ذلك لعقلوا، وعملوا حق العلم أنّ الآخرة هي الحق ، وأنّها لا ريب فيها – كما أوضحت ذلك مفصلاً في كتاب (الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها) .

الرابع من هداية البيان والدلالة الذي هدى الله تعالى بها العباد بواسطة الرسل صلوات الله عليهم ، بها يظهر اختيار العاقل المكلف :

فإما أن يختار ويستحب الإيمان ، ويمشي على هدىً وبصيرة سوياً على صراط مستقيم ؛حتى ينتهي أمره إلى الجنة الخلد ونعيم الأبد .

وإما أن يختار ويستحب العمى على الهدى ، فيتخبط في ظلمات الضلال المبين ، حتى ينتهي أمره إلى جهنم وبئس المهاد .

قال تعالى : { وأما ثمود فهديناهم } – أي : بيّنا لهم ، ودللناهم على الحق الذي فيه سعادة الدنيا والآخرة ، مع البيّنات وإيضاح الدلالات – { فاستحبو العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون . ونجينا الذين امنوا وكانوا يتقون } .

وقال تعالى : { إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً } والمعنى أنّه سبحانه بيّن للإنسان سبيل الحق ، وطريق الخير ، وبصّره به ، وأوضحه له بالبيّنات ؛ كل ذلك بواسطة الرسل صلوات الله عليهم ، وإنزال الكتب الإلهية عليهم ، فهنا يظهر اختيار الإنسان : فإما أن يهتدي ، أي : يسير على طريق الهدى المنير ، شاكراً لربّه على نعمة الإيمان والإكرام ، ونعم الله تعالى التي لا تحصى .

وإما أن يكفر بذلك ظلماً وعلواً ،أو كبراً وطغياناً ، أو فسقاً واستغراقاً في الشهوات البهيمية .

وعلى ذلك يترتب الثواب والعقاب ، ولذا قال سبحانه بعد تلك الآيات:

{ غنا أعتدنا للكافرين سلالاً وأغلالاً وسعيراً .إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً } الآيات .

وقال تعالى : { وقل الحق من ربكم فمن شاء فل يؤمن ومن شاء فليكفر } .

والمعنى : قد جئتكم بالحق من ربّكم ، ففكروا في حقيّة ذلك واعقلوه ، فإنّ الحق هو الأمر الموافق للواقع ، ولا يمكن بل لا يجوز للعاقل أن ينكر الواقع المشهود عقلاً ، كما لا يجوز أن ينكر المشهود بصراً .

فهل يجوز للعاقل أن ينكر ضوء النهار ، ويزعم أنّه ليل مظلم ، فإنه إذا قال ذلك حكم الناس عليه بالمجنون ، وهكذا فإنّ نور الشرع والحق الذي

جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فإنه نور مشهود لدى العقول والقلوب والأفكار ، فمن أنكره فهو أشد جنوناً ممن ينكر طلوع النهار وضوءه .

ولذلك قال سبحانه : { قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين } .

وقال تعالى : { كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور } .

فبعد بيان الحق ، وظهور النور :

فمن شاء فليؤمن لأنه لا يسعه إلاّ أن يصدق بالحق ، ومن شاء فليكفر – هذا من باب التهديد والوعيد الشديد ، نظير قوله تعالى : { اعلموا ما شئتم إنه بما تعمون بصير } ، فليس المراد هنا فعل المأمور به ، بل المراد التحذير والتهديد بالوعيد الشديد .

والمعنى : فمن يكفر فقد ستر الحق ، واعرض عن النور الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، والبيان الذي بيّنه ، إذاً فليعلم أنّ هناك الحساب والعقاب ، فإن الله تعالى هو أسرع الحاسبين ، وهو أحكم الحاكمين ، وهو شديد العقاب .

ولذلك قال سبحانه : { ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط به سرادقها } أي : لأنهم ظلموا أنفسهم ، فتركوا الحق الظاهر وكرهوه ، ولم يختاروه ، واستحبوا العمى ، واتبعوا الباطل ، ففوّتوا على أنفسهم النعيم الأكبر ، وحرموها الخير الكثير ، فهم الظالمون لأنفسهم ، حيث سلكوا طريق الباطل الموصول إلى جهنم وعذاب الحريق ، وأعرضوا عن طريق الحق الموصول إلى الجنة والنعيم المقيم ، فأيّ ظلم أعظم من هذا الظلم لأنفسهم ؟!

النوع الثالث من الهداية : هداية التوفيق للعمل بموجب الهدي البياني ، الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ،وسلوك الصراط المستقيم ، والطريق القويم ، الذي مشى عليه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، ودعا إليه ، ودلّ العباد عليه .

قال تعالى : { قل غني هداني ربي إلى صراط مستقيم } .

وقال سبحانه : { إنك لعلى هدى مستقيم } .

وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم : [وإنّ خير الهدي هدي محمد] صلى الله عليه وآله وسلم .

وهذه الهداية في المعنيّة في قول الله تعالى – يعلّم عباده أن يقولوا - : [اهدنا الصراط المستقيم} ، وأن يسألوه سبحانه هدايتهم إلى هذا الصراط المستقيم ، كل يوم وليلة ، في أكمل قرباتهم ، وأفضل عباداتهم وهي : الصلوات الخمس .

فمن نال هذه الهداية يسمى بالمهتدي ، ولا يملك هذه الهداية ولا يقدر عليها إلا الله تعالى :

قال تعالى : { من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلم تجد له وليا مرشدا } .

وقال تعالى : { إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء } .

فهذه الهداية هي التوفيق للعمل بما جاء به صلى الله عليه وآله وسلم ، وبما هداهم – أي : دلّهم عليه – فأثبت له صلى الله عليه وآله وسلم هداية البيان ؛ والدلالة على صراط مستقيم ، الجامع لكل خير ، فقال : { وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم } .

وأما التوفيق للسير على هذا الصراط والمشي عليه فهذا إلى الله تعالى ، كما قال سبحانه : { والله يدعوا إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم } .

فالله تعالى دعا عباده في القرآن العظيم ؛ وعلى لسان رسوله الكريم صلى الله عليه وآله وسلم ، دعاهم كلهم إلى دار السلام ؛ وهي الجنة ، حتى يستريحوا من دار السّقام وهي الدنيا ، فجاء صلى الله عليه وآله وسلم داعياً إلى الله السلام ، وإلى داره دار السلام ، ولكن هداية التوفيق من عنده .

قال الله تعالى :{ يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا وما يضل به إلا الفاسقين . الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون } .

والفاسق هو الذي خرج عن منهاج الحق والاعتدال بعدما اتّضح له ؛ وسلك طريق الغيّ والضلال .

روى البخاري وغيره ، عن جابر رضي الله عنه قال : (جاءت ملائكة إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو نائم فقال بعضهم : إنه نائم ، وقال بعضهم : العين نائمة والقلب يقظان .

فقالوا : إن لصاحبكم هذا مثلاً فاضربوا له مثلاً .

فقالوا : مثله كمثل رجل بنى داراً وجعل فيها مائدة ، وبعث داعياً ، فمن أجاب الداعي : دخل الدار ، وأكل من المأدبة ، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة .

فقالوا : - أي : الملائكة – أولوها يفقهها.

فقال : إن العين نائمة والقلب يقظان ، فالدار الجنة ، والداعي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، فمن أطاع محمداً صلى الله عليه وآله وسلم فقد أطاع الله تعالى ، ومن عصى محمداً فقد عصى الله تعالى ، ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم فرق بين الناس) .

وفي رواية الترمذي ، عن ابن مسعود رضي الله عنه : (فقال الملك : اسمع سمعت أذناك ، واعقل عقل قلبك ، إنما مثلك كمثل أمتك : كمثل ملك اتخذ داراً ، ثم بنى فيها بيتاً ، ثم جعل فيها مائدة – وفي رواية : مأدبة – ثم بعث رسولاً يدعوا الناس إلى طعامه، فمنهم من أجاب الرسول ، ومنهم من تركه ، فالله هو الملك ، والدار والإسلام ، والبيت الجنة ، وانت يا محمد – صلى الله عليه وآله وسلم – رسول– أي : الداعي – فمن أجابك دخل الإسلام ، ومن دخل الإسلام دخل الجنة ، ومن دخل الجنة اكل مما فيها) .

والسلام في قوله تعالى : { والله يدعوا إلى دار السلام } إما المراد به اسمه تعالى السلام ، وأضاف الدار إليه إضافة تشريف وتكريم ، كالكعبة فهي بيت الله تعالى ، وإما المراد بالسلام : السلام منه : أي : تحياته لهم سبحانه ، كما قال جلّ وعلا : { تحيتهم في سلام } .

وقال تعالى : { تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجراً كريماً } .

وقال تعالى – مخبراً عن كثرة سلامه على أهل الجنة - : { سلام قولاً من رب رحيم } أي : سلام دائر يتوارد عليهم من رب رحيم .

روى ابن ماجه وغيره ، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : [بينما أهل الجنة في نعيمهم إذ سطح عليهم نور ، فرفعوا رؤوسهم فإذا الرب تبارك وتعالى قد أشرق عليهم من فوقهم .

فيقول : السلام عليكم يا أهل الجنة ،فيحيّيهم ويحيّيونه ، فذلك قوله تعالى : { سلام قولاً من رب رحيم }] .

قال : [فينظر إليهم ، وينظرون إليه ، فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه ، حتى يحتجب عنهم ، ويبقى نور بركته عليهم في ديارهم .

اللهم اجعلنا منهم يا رب يا رحيم . ومن الملائكة أيضاً قال تعالى : { والملائكة يدخلون عليهم من كل باب . سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبي الدار } .

والسلام من بعضهم على بعض قال تعالى : { لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً . إلا قيلاً سلاماً سلاماً } .

وفيها السلامة من الآفات والأسقام والأمراض، فهي دار السلام العام ؛ أوّلاً من الله تعالى ، ثم السلام من الملائكة عليهم السلام ، ثم من بعضهم على بعض قال تعالى : { لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً . إلا قيلاً سلاماً سلاماً } .

وههنا مسألتان

الأولى : إذا كانت هداية التوفيق هي من الله تعالى وحده لا يملكها غيره ؛ فما هو موقف الضالّ الذي لم تنله هداية التوفيق ؛ ما هو موقفه من الجزاء ؟

الثانية : المؤمنون مأمورون أن يقولوا في صلواتهم ؛ وغير صلواتهم : { اهدنا الصراط المستقيم } في حين أنهم مهتدون ، فما المقصود من سؤالهم الهداية ؟

الجواب عن المسألة الأولى :

إن الله تعالى قد اوجب على نفسه – رحمة منه وفضلاً – هداية البيان والدلالة كما تقدم ، وذلك بأن يبعث الرسل وينزل الكتب فتبيّن للناس ، ويهدونهم إلى طريق الحق ، ويدلونهم عليه ، ويأتونهم بالحجج والبراهين ، والآيات والبينات ، بحيث لا تبقي لهم عذراً لمعتذر ، كما قال سبحانه : { رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً } ويبقى كل رسول مع أمتة مدة طويلة واسعة من الزمان ، وهو يحاجّهم ويناظرهم ، ويبيّن لهم ، فبعد البيان والتبيان فهناك يعلمون الحق من الباطل ، ويعرفون ما ينفع وما يضر ، ويفرقون بين الهدى والضلال – يعرفون ذلك كله ، فبعد هذه المعرفة :

منهم من يميل قلبه وبحب اتباع الحق بعد معرفته بذلك ، ويستحسنه فيشرح الله صدره ، ويفتح قلبه ، فليقي فيه نور الإيمان ، فيقرّ ويعترف ، ويعلن ذلك بالشهادتين معبّراً عمّا قلبه .

زمنهم من يعرف لكن لا يعترف ، ويعلم حقيّة ما جاءت به الرسل صلوات الله عليهم ولكن يجحد بعدما علم وينكر ، وذلك : إما بسبب كبر النفس قال تعالى : { إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه } ، وقال تعالى – في قوم فرعون - : { وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً } وإما بسبب اتباع أهوائهم وشهواتهم ، فإنها لا تنفق مع ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، قال تعالى : { وكذبوا وتبعوا أهوائهم } أي : كذبوا بالحق الذي جئت به ، وقد علموا أنه الحق ، ولكنه مخالف لأهوائهم الفاسدة ، وما هم عليه من الشهوات البهيمية ، ومن ثمّ قال تعالى : { فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهوائهم } .

والمعنى : أنهم إن لم يستجيبوا لك حين تدعوهم إلى الحق ونور الهدى بعدما بان لهم ببيناتك التي جئتهم بها ، فاعلم أنّهم يتبعون أهوائهم لأنهم قوم

لا يريدون الحق ، وغنما يمشون وراء أهوائهم الباطلة ، ولذلك كان شأنهم دائماً بأن يعرضون ويعارضوا ، ويصرّوا على كفرهم وبغيهم مراراً وتكراراً ، حتى إذا بلغوا غاية الجحود والعناد ، والظلم والفساد ، طبع الله تعالى على قلوبهم الكفر – عقوبةً لهم من جنس عملهم – فهم لا يؤمنون .

قال تعالى : { إن الذين كفروا } – أي : الذين ستروا الحق الذي جئتهم به ، وألقوا الحجاب وأصرّوا ، ومردوا على الكفر مع بيانك وتبيانك يا رسول الله – { سواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون . ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم } .

وقال تعالى : { كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين } عقوبة لهم ، وجزاء على إصرارهم على الكفر ، وإعراضهم عن الحق بعدما عرفوه .

وقال تعالى : { كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار } أي : متكبر على قبول الحق بعدما تبين له ، كما قال سبحانه : { فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين } أي : لأنّهم فسقوا فجاوزوا الحدود الشرعية تجاوزاً بعيداً ، منكرين ومتكبرين ، ومعرضين عنها استمراراً وإصراراً ، كما قال سبحانه : { ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون } .

فهم طغاة بغاة ، استحبوا العمى على الهدى ، واختاروا طريق الفساد والغيّ والردى ، فأعطاهم العمى فهم يعمهون .

قال تعالى : { وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى } أي : بيّنا لهم الحق وسبيل الرشاد فأعرضوا ، واستحبوا العمى على الهدى ، وهذا من باب العدل الإلهي ، فإنّ هذه العقوبات بالطبع والختم على قلوبهم وما هنالك ،كانت بأسباب جرائمهم الصادرة عنهم باختيارهم ، وإعراضهم ، كما قال سبحانه : { وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون } فهداهم – أي : بين الله تعالى لهم – بواسطة الرسل وإنزال الكتب ، وبالآيات والبيّنات ، ومناظرات الرسل لهم ، فبيّن لهم حتى بان لهم نور الحق فأعرضوا ، وبصّرهم نور الحق فتعاموا ، وأسمعهم كلام الحق فتصامّوا ؛ فعاقبهم بأن جعلهم صمّاً بكماً عمياً القلوب .

ومن هذا قوله تعالى : { يس . والقرآن الحكيم . إنك لمن المرسلين . على صراط مستقيم . تنزيل العزيز الحكيم . لتنذر قوماً ما أنذر ءاباؤهم فهم غافلون . لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون . إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون . وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون . وسواء عليهم أءنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون } .

فقد أقسم سبحانه بالقرآن الحكيم – أي : الجامع لأنواع الحكمة ، التي لا تحصى – على أنّ سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم هو من المرسلين ، لا يحتمل أمره أن يكون شاعراً أو ساحراً أو كاهناً ؛ ولا ولا . . . بل هو رسول الله حقاً ، فإنّه قد مضت قبله رسل ثبتت رسالتهم بالبينات والمعجزات ، وإنزال الكتب الإلهية عليهم ، وإن كل الشواهد والبراهين والأدلة والآيات والمعجزات التي أثبتت رسالة من قبله ؛ هي كلها مجتمعة لتصديق سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، فلقد أوتي من المعجزات وخوارق العادات فوق معجزات الرسل قبله ، وإنّ الكتاب الذي جاء به هو أجمع من الكتب النازلة على الرسل قبله ، وأعظمها ، وقد جاء هذا الكتاب على وجوده من الإعجاز مع التحدي لجميع العالم بأن يأتوا بسورة مثله ، ولا قال سبحانه : { تنزيل العزيز الرحيم } أي : لا يحتمل أن يكون هذا الكتاب الحكيم من المخلوقين : الإنس والجن وغيرهما ، بل هو قطعاً تنزيل من الله العزيز الرحيم ، جاء لينذر قوماً ما أنذر آباءهم ، ويبين لهم الحق بالحجج والأدلة ، وأوضح لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وبيّن لهم ، وحاجّهم ، وناظرهم ، وأقام عليهم الحجة والبراهين القاطعة ، وأراهم أنواعاً من المعجزات المرئية ، ومع ذلك فهم يجحدون ويعرضون ويكذبون ، واستمروا على ما هم عليه ، وأصروا ، وعاندوا ، وعارضوا ، فكانت النتيجة أن حق عليهم القول ، وهو قوله تعالى – لإبليس - : { قال فالحق والحق أقول . لأملأن جهنم منك وممن تبعك معهم أجمعين} .

فضرب الكفر عليهم ، وسدّت عليهم الأبواب عقوبة لهم .

وهذا نظير قوله تعالى : { وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا متر فيها فسقوا فيها فحق القول فدمرناها تدميراً } .

فلما فسقوا وأصروا على كفرهم ، ولم يزدجروا ؛ حق عليهم القول بتدميرهم ، فلقد أخذهم بالعذاب المدّمر لهم : بالحق لا بالظلم ، كما قال تعالى – في الكفار من الأمم السابقة - : { وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب . وكذلك حقت كلمت ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار } أي : لأنهم كفروا، فما ظلمهم الله تعالى ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

قال تعالى :{ وما الله يريد ظلماً للعالمين }.

وقال تعالى :{ وما ربك بظلام للعبيد }.

فكانت معاقبته سبحانه لهم في الدنيا والآخرة من باب العدل، لا من باب الظلم ، فإنّ تصرفه في عباده لا ظلم فيه، ولا جور، بل هو على صراط الحق والعدل والحكمة .

قال تعالى :{ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً كأنما يصعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون }.

فانظر في قوله تعالى :{ كذلك } أي: هكذا عادته سبحانه، ومقتضى حكمته وعدله ، أن يجعل هذا الرجس، وهو الكفر بسبب ضيق الصدر الذي صاروا إليه ؛ يجعله على الذين لا يؤمنون بالحق بعدما تبين لهم ، فكذبوا بالآيات البينات ، ولم يصدقوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ولا بما جاء به من الآيات القرآنية المعجزة ، ولا بيّناته القاطعة ، بل جحدوا بذلك بعد علمهم أنّها حق من عند الله تعالى ، وأنّ الذي جاء به هو رسول الله حقاً صلى الله عليه آله وسلم .

كما قال سبحانه : { فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون } .

والمعنى : أنّهم يعلمون يقيناً أنّك صادق ، وأنّ الآيات التي تتلوها هي ليست من عندك ؛ ولا كلام المخلوقين لإعجازها ، ولكنّهم ظالمون ، فراحوا يجحدون بعد علم ، وينسبونك إلى الكذب وهم على علم أنّك صادق الأمين – صلى الله عليه وآله وسلم – وكان ذلك منهم على كبر طغيان ،

كما قال تعالى- عن فرعون وقومه - : { وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً } .

وقوله سبحانه : { كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون } – أي : لا يصدقون بالحق بعدما ظهر لهم ، بل يجحدون بعد علم- في هذا دليل على أنّ الذي هداه الله تعالى ، وشرح صدره قد ختار الإيمان واستحسنته ، واستحب الهدى على الضلال والعمى ، لما تبين الحق له وآمن – أي : صدّق بالآيات و البينات التي جاءت بها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، فهداه الله تعالى هداية التوفيق ، وثبت ذلك في قلبه ، فشرح الله صدره ووسعه، وألقى فيه النور الإيماني ، كما قال سبحانه : { أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين } .

فشرح الله تعالى صدره الذي استحب الهدى واختاره ، فملأ سبحانه قلبه نوراً إيماناً ، بحيث لا يرتد ، وصبغه صبغة إيمانية لا تمحى قال تعالى : { صبغة الله ومن أحسن الله صبغة } .

ثم قال سبحانه – بعدما ذكر المؤمن الذي شرح الله صدره ، وتضييق صدر الكافر الجاحد - : { وهذا صراط ربك مستقيماً قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون } .

وأشار بقوله سبحانه : { هذا } – أي : ما تقدم ذكره من شرح صدر ذاك ، وتضييق صدر ذاك – { وهذا صراط ربك مستقيماً } أي : صراط الحق والعدل الإلهي ، ومقتضى الحكمة الربانية ، فهو سبحانه يدبر أمور عباده ، ويتصرف في ملكه على طريق العدل ، وصراط الحق ، كما هو مقتضى حكمته الربانية ، فإنه العليم الحكيم ، لا ظلم ولا جور ، بل جميع ذلك على صراط الحق والعدل المستقيم .

قال تعالى : { شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم } .

فلا اعتراض على الحكيم العليم ، ولا اعتراض على عدله المستقيم ، فهو سبحانه قوله الفصل ، وقضاؤه العدل ، كما جاء في الحديث : [اللهم إنّي عبدك ، وابن عبدك ، وابن أمتك ، ناصيتي بيدك ماض فيّ حكمك ، عدل فيّ قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك ، سميت به نفسك ، أو أنزلته في كتابك ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ، ونور صدري] – وفي رواية : [ونور بصري } – وجلاء حزني ، وذهاب همّي وغمّي] [٤٩] .

وقال الله تعالى : { وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين } .

فلما عرفوا الحق استجابوا له ، وقالوا : ربّنا آمنا ، فعلموا بموجب ما عرفوا وسألوا الله تعالى أن يكتبهم مع الشاهدين ، وهم أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، الذين يشهدون على من قبلهم من الأمم .

{وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين . فأثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك جزاء المحسنين } .

فهذا موقف مؤمنين الأخيار مع كتاب الله تعالى .

ثم أخبر سبحانه بعد ذلك عن الذين كفروا - أي : ستروا – وجحدوا الحق بعدما تبين لهم ، وعرفوه واتضح لهم ، فقال سبحانه : { والذين كفروا وكذبوا بئاياتنا أولئك أصحاب الجحيم } .

فهذا موقف الكفار والأشرار مع آيات الله تعالى .

اللهم اجعلنا من { الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب } .

فالله تعالى في جميع تدبيره وتصرفه بمخلوقاته : خفضهم ورفعهم،وإعزازهم وإذلالهم ، وإماتتهم وإحيائهم ، وفي جميع معاملاته مع

---

[٤٩] كما في الترمذي والمسند .

عباده هو في ذلك كله على صراط مستقيم ، وهو صراط الحكمة الربانية والعدل الإلهي ، فإنّه العليم الخبير بعباده ، علماً قديماً أزلياً لا أول له ، ومحيطاً لا نهاية له ، فهو العليم بمواقع الفضل الإيماني وأهله ، قال تعالى – في أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم : { وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شيء عليماً } .

فهو سبحانه العليم الحكيم ، والحكمة تقتضي وضع الأمور في مواضعها اللائقة فيها :

قال تعالى : { ويؤت كل ذي فضل فضله } فهو سبحانه يضع فضله موضعه .

وقال تعالى – في الكفار - : { ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون } فهم ينفرون من سماع القرآن والإيمان ، وتضيق صدورهم ، كما قال تعالى : { وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة } ويستحبون ويختارون العمى على الهدى ، وتنشرح صدورهم للكفر، قال تعالى : { ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم . ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله لا يهدي القوم الكافرين } أي : الذين جاءهم الحق واتضح لهم بالبينات حتى بان لهم الحق وظهر لهم وعرفوه ، ولكنهم جحدوا به بعد علم ، ولم يقروا و ولم يعترفوا بل أخفوه وستروه، ولذلك سماهم الله تعالى كفاراً ، والكفر هو : ستر الحق بعد ما وضح، ولذلك قال تعالى فيهم إذا جاءت القيامة :{ بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل } الآية.

فرتب جميع ذلك على اختيارهم الضلال، واستحسانهم له، ومحبتهم إيّاه، وكراهيتهم للهدى والإيمان بعد ما ظهر لهم بالحجة والبرهان، فعوقبوا بالطبع على القلوب والسمع والأبصار- والعياذ بالله تعالى من ذلك كله.

فالله تعالى كما قال:{ ولا يظلم ربك أحداً }، فهو الرب سبحانه ، والكل عباده، وهو في تصرفه في عباده على صراط مستقيم، قال تعالى- مخبراً عن هود عليه السلام - :{ إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دآبة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم } أي: الحكمة البالغة والعدل

القويم ، ويسمى هذا الصراط الربوبية وهو صراط الحق والحكمة الإلهية، التي يدبر بها أمور الخلائق ،ويتصرف فيهم ، وأما الصراط في قوله تعالى : { اهدنا الصراط المستقيم } فهو صراط الإسلام لله تعالى ، والعبودية له تعالى.

وفي الحديث : [اللهم أنت ربي لا إله إلاّ أنت عليك توكلت وأنت ربّ العرش العظيم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، أعلم أنّ الله على كل شيء قدير ، وأنّ الله قد أحاط بكلّ شيء علماً .

اللهم إنّي أعوذ بك من شرّ نفسي ، ومن شرّ كل دابّة أنت آخذ بناصيتها إنّ ربي على صراط مستقيم] .

فإن قيل : إنّ مشيئة العبد واختياره الأمور التكليفية والقيام بها ، أو عدم اختياره لها وقيامه بها- هذا الاختيار هو بخلق الله تعالى ومشيئة الله تعالى ، بدليل قوله تعالى :{ وما تشاءون إلا أن يشاء الله } إذاً فمشيئة العبد واختياره ليس لذلك أثر ولا اعتبار .

فالجواب : نعم إنّ مشيئة العبد واختياره وأفعاله كلها مخلوقة ، خلقها الله تعالى ، ولكن لا يلزم من كون ذلك بمشيئة الله تعالى ، وكون الشيء مخلوقاً له تعالى : لا يلزم من ذلك أن لا يكون له أثر في الوجود، ولا حكم له في الواقع ، ولا يترتب عليه ثواب أو عقاب، فإنّ الاختيار والمشيئة هما من صفات العبد التي خلقها الله تعالى فيه، كالحياة والسمع والبصر، والقدرة والكلام، والعلم والعقل، فإنّ جميع ذلك هو بخلق الله تعالى ، ومشيئته سبحانه، ولكن لها أثرها في الوجود، ولها اعتبار وحكم في الواقع، ويترتب عليها حقوق واجبات ومسؤوليات.

فالإنسان حيّ بخلق الله تعالى في الحياة، فالله تعالى هو المحيي، والعبد حيّ، وحياته لها أثرها في الرواح والمجيء، والحركات والسكنات ، والأقوال والأعمال ، وهو حيّ حقيقة بحياة مخلوقة فيه ، لا وهماً ولا خيالاً – بدليل أنّ هناك ميتاً ليس فيه حياة .

حول تفسير سورة الفاتحة

أم القرآن الكريم

بقلم فضيلة الشيخ الإمام المحدث المفسر سيدي عبد الله سراج الدين الحسيني رضي الله تعالى عنه

وصية وذكرى	1
مقدمة الكتاب	5
حكم التعوذ قبل قراءة القرآن الكريم	9
الكلام عن التعوذ له وجوه متعددة	10
1 – حكم التعوذ	10
بيان الحكمة من التعوذ عند القراءة	11
2 – صفة – صيغة التعوذ	12
3 – معنى التعوذ كلمة كلمة	14
4 – المواطن التي ينبغي التعوذ عندها – ذكر عشرة منها مع دليل ذلك مفصلاً	15
الكلام على البسملة – يشتمل على أمرين :	21
الأول – شرح مفرداتها	21
ذكر معنى لفظ الجلالة [الله] وبعض خصائصه مفصلاً	21
ذكر معنى اسم [الرحمن] وما يدل عليه	24
ذكر ما يدل عليه اسم [الرحيم] من الرحمة الخاصة والعامة	25
بيان بعض الرحمة الخاصة التي يدل عليها اسم [الرحيم]	25
الجواب عما يسأل عن قوله سبحانه :{ ورحمتي وسعت كل شيء } الآية حيث خصص ثم عمم	27
تنبيهات وتفهيمات ينبغي للمؤمن اللبيب أن يعرفها حول سر اقتران اسم [الرحمن] مع اسم [الرحيم]	29
1 – الرحمن الرحيم باقترانهما يكونان اسم الله الأعظم	29
2 – الرحمن الرحيم إذا اقترنا دل كل منهما على رحمة خاصة	29

3 – الحكمة في تخصيص هذين الاسمين في البسملة – بيان وجوه منها	30
الثاني – هل البسملة آية مستقلة في القرآن الكريم ، أم آية من كل سورة بيان ذلك مفصلاً مع الأدلة	33
سنية افتتاح مهام الأمور بالبسملة – ذكر الأدلة على ذلك	43
ذكر جملة من الأمور التي تسن البسملة فيها مع دليل كلٍ مفصلاً	45
الشرح الواضح الموجز لحدث :[إذا استجنح الليل] وبيان جملة من الإرشادات والآداب التي اشتمل عليها	50
تنبيه وتحذير من إلقاء شيء فيه اسم الله تعالى أو آية قرآنية ، أو حديث شريف على الأرض أو عدم تعظيمه – وهو موضوع مهم ينبغي الاطلاع عليه والعمل بموجبه	57
فاتحة الكتاب – ذكر عدة من أسمائها مع الدليل على ذلك	63
الكلام حول { الحمد لله رب العالمين }	65
بيان معنى الحمد ، والمراد به في الآية الكريمة	65
بيان أن الحمد حق لله سبحانه وتعالى – ذكر جملة من الأدلة على ذلك ، مع جملة من النعم التي أنعمها سبحانه على عباده ، فكان الحمد حقاً واجباً له سبحانه	65
أعظم نعم الله تعالى هو القرآن الكريم – ذكر الدليل على ذلك مطولاً	67
بيان أحمد الحامدين لله سبحانه وتعالى مع الدليل على ذلك	69
ذكر جملة من محامد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم	71
تفسير قول الله تعالى :{ رب العالمين }	72
ذكر بعض خصائص اسم الرب سبحانه بيان معنى { العالمين }	72
العوالم كثيرة وكبيرة ينبه الله تعالى فيها إلى أمور فيها بينات وبيانات	75
1 – تعريف العباد وحملهم على الإقرار بوجوب وجوده سبحانه	75
2 – بيان فقر العالم إلى ربه سبحانه	78
3 – التحدي لجميع العباد أن يخلقوا مثل هذا العالم ، بل عن الإحاطة به	79
4 – بيان كثرة العوالم وعظمها	79
ذكر جملة من العوالم وبيان خصائص كل منها	79
الكلام حول :{ الرحمن الرحيم }	84
جيئ بهذين الوصفين لوجوه من الحكم	84

1 – بيان أن رحمة الله تعالى ملازمة لربوبيته	84
2 – الإعلام باستحقاق الحمد لله سبحانه	85
3 – بيان أن رحمته تعالى وسعت جميع خلقه	85
4 – شمول رحمته تعالى – ذكر نبذة موجزة عن سورة الرحمن	85
{ الرحمن الرحيم } اسم الله الأعظم – ذكر أدلة ذلك	86
الكلام حول :{ مالك يوم الدين } تفسير مفردات هذه الآية الكريمة مفصلاً	88
{ مالك يوم الدين } أي : الجزاء والحساب غداً يوم القيامة	92
ذكر الأيام التي اشتمل عليها اليوم الآخر مع الدليل على كلٍ	92
{ مالك يوم الدين } في ذلك تنبيهات متعددة	94
1 – التنبيه إلى حقية ذلك اليوم ومعقوليته وحكمته ودليل ذلك	94
2 – التنبيه إلى إحسان العمل في الدنيا استعداداً لذلك اليوم	95
3 – مقتضى حكمة الله تعالى محاسبة العباد في يوم الدين	96
4 – بيان أن العباد المكلفين أعطاهم الله تعالى العقل والاختيار والقدرة الممكنة لهم من فعل الخير والشر	96
5 – إذا اقل العبد :{ مالك يوم الدين } فإنه يمجد الله تعالى – ذكر معنى ذلك مع الأدلة	97
الكلام حول :{ إياك نعبد وإياك نستعين }	99
ذكر معنى العبادة ، وبيان ما تقوم عليه	99
{ إياك نعبد } فيها تلقين وتعليم من الله تعالى لعباده	103
{ إياك نعبد وإياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم } ذكر وجوه من الحكم في مجيء هذه الآيات بنون الجمع	103
1 – هضم النفس والاعتراف بالعبودية لله تعالى	103
2 – اتهام العبد نفسه بنقص عبادته اللائقة بالله تعالى فيضيفها إلى عبادة العباد	105
3 – الإعلان عن حاجة كل المخلوقات إلى الله سبحانه وتعالى	105
{ إياك نعبد } قياماً بالحق ووفاء بالعهد – ذكر العهد مع البيان المفصل له	106
{ إياك نعبد } لأنك خلقتنا لعبادتك ، ولأن شرفنا في ذلك	107
بيان الإنسان الحقيقي الذي اتصف بالإيمان وتحلى به ، وذاك الذي هو أضل من الأنعام مع بيان وتوضيح ينبغي الاهتمام به	107
ذكر جملة من أسرار وأنوار وآثار العبادة – سبعة منها -	109
{ إياك نعبد وإياك نستعين } فيها بيان افتقار العباد إلى الله تعالى	111

وغناه سبحانه عن كل ما سواه	
ذكر حديث سيدنا معاذ بن جبل وقول النبي صلى الله عليه وسلم له :[إني أحبك] وبيان ما اشتمل عليه الحديث من مجامع الخير	111
{ وإياك نستعين } يشمل الإعانة على ما ينفع من الأمور الدنيوية	113
{ وإياك نستعين } يشمل الإعانة على ما ينفع من الأعداء	114
{ وإياك نستعين } فيها موقف اعتراف العبد بعجزه وافتقاره إلى خالقه سبحانه	114
ذكر الأدلة المفصلة الواضحة حول الأسباب والوسائط التي جعلها الله تعالى لخلقه في عون بعضهم بعضاً واستعانة بعضهم ببعض – وهذا لا ينافي أن المعين هو الله وحده سبحانه	116
بيان وجوه من الحكمة في تقديم العبادة على الاستعانة في { إياك نعبد وإياك نستعين }	125
الكلام على { اهدنا الصراط المستقيم }	128
بيان معنى الهداية ، والمراد من الصراط	128
ذكر أنواع الهداية التي جاءت في الكتاب والسنة مع الدليل على ذلك	131
1 – هداية الله تعالى لجميع المخلوقات لما في صلاح وجودها	131
2 – هداية البيان والدلالة على الخير – ذكر أمور أربعة تتعلق بهداية البيان وآثار كل منها	132
3 – هداية التوفيق للعمل الصالح	143
إيراد مسألتان مع الإجابة عليهما :	147
أ – الجواب عما يقال : إذا كانت الهداية من الله تعالى فما موقف الضال الذي لم تنله هذه الهداية – وهو بحث نفيس نادر ينبغي الاطلاع عليه ، والاهتمام به	147
ب – المؤمن من يسأل الهداية في قوله :{ اهدنا الصراط } فما معنى طلبه لها ؟ ذكر أقوال السادة العلماء في الإجابة على ذلك مفصلاً ومطولاً	159
بيان معنى الإسلام والإيمان والمراد بكل منهما مفردين ومجتمعين	161
ذكر ما يطالب به الماشي على الصراط من أوامر ومناهي	167
ذكر حديث شعب الإيمان ثم تعداد هذه الشعب الإيمانية إجمالاً	168
الترغيب في دوام سؤال العبد الهداية ليرتقي في مقاماته ومنازله	176
السير على الصراط يتطلب أمرين ؟ بيانهما مع الأدلة	178

{ صراط الذين أنعمت عليهم } هذه الآية بيان للصراط المذكور في { اهدنا الصراط المستقيم }	181
{ صراط الذين أنعمت عليهم } فيه تنبيه للمؤمن على حسن الظن بالله تعالى	183
بيان أن أعظم النعم الإلهية على عباده في هدايتهم وتوفيقهم للإيمان – بيان جملة من النعم العامة والخاصة مع الدليل على كلٍ	184
امتن الله على عباده بأصناف النعم وذكرهم بنعمتين عظيمتين – بيانهما مع الشرح لهما	186
بيان أعظم من أنعم الله تعالى عليه بنعمة النبوة والرسالة – وفيه البيان المجمل لأول سورة { ن والقلم }	191
{ صراط الذين أنعمت عليهم } بيان المعنى المراد من الآية الكريمة	193
تنبيه وذكرى ؟	194
الجواب عما يقال : الصراط الذي تمشي عليه الأمم واحد ، ومن المعلوم أن الشرائع مختلفة – فكيف يتم ذلك ؟	196
بيان الأصول الستة المتفق عليها بين الشرائع جميعاً	202
{ غير المغضوب عليهم ولا الضالين } في هذه الآية موقف الاستعاذة بالله تعالى والتحصن به من الانحراف عن الصراط المستقيم	203
{ غير المغضوب عليهم ولا الضالين } فيها إعلان الغضب من الله تعالى على من انحرف عن الصراط المستقيم	206
بيان معنى الغضب والضلال	208
{ غير المغضوب عليهم ولا الضالين } فيها شهادة من الله تعالى للمؤمنين الصادقين بنجاتهم وفلاحهم	209
بعض اللطائف التي اشتملت عليها سورة الفاتحة في الصلاة وما في ذلك من البشائر	210
تنبيه : من السنة أن يأتي القارئ بعد ختام سورة الفاتحة بـ [آمين] – ذكر الأدلة على ذلك	213
استحباب التأمين عند كل دعاء – وبيان أن الداعي والمؤمن شريكان في الأجر	215
من فضائل سورة الفاتحة وخصائصها :	217
1 – هي أعظم سورة في القرآن الكريم	217

2 – جامعة لذكر الله تعالى وحمده والثناء عليه	219
ذكر الدليل على أن ما في سورة الفاتحة مضمون الإجابة	221
3 – هي سورة المناجاة	222
4 – سورة الفاتحة شفاء من كل داء	222
5 – تحفظ من شر العين الحاسدة	224
6 – يرقى بها المعتوه والمجنون	224
7 – تقرأ لقضاء الحاجات	225
8 – تقرأ عند النوم للأمان	225
9 – ذكر بعض أسماء سورة الفاتحة مع الدليل	226
ذكر جملة من المعاني والعلوم التي اشتملت عليها سورة الفاتحة:	227
الأول – علوم العقائد	227
الثاني – النبوات	227
الثالث – علوم العبادات	227
الرابع – العلوم التي يحصل بها الكمال الإيماني	228
الخامس – علم القصص والإخبار عن الأمم الماضية	229
10 – وتسمى سورة الفاتحة بالسبع المثاني – بيان معنى ذلك	229
11 – ونزلت من كنز تحت العرش	230
12 – تقرأ عند المريض مع { قل هو الله أحد } والمعوذتين	231
13 – بيان أثر قراءة الفاتحة عند دخول المقابر	231
خاتمة الكتاب	232

والحمد لله في البدء والختام وصلى الله وسلم على سيدنا محمد سيد ولد عدنان وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً كثيراً إلى يوم الدين .